رواية

محمد شويحنة

فتحة في الجدار

Jidar
Culture & Publishing

فتحة في الجدار

الكتاب: **فتحة في الجدار**
المؤلف: محمد شويحنة
رواية

الناشر:
جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية
www.jidar.net | info@jidar.net
الطبعة الأولى 2026
الترقيم الدولي: 978-1-291-51197-0
التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة
جميع الحقوق محفوظة © 2026

لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من الناشر، استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، أو تسجيلها أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها.

Title: A Hole in the Wall
Author: **Mohmmad Shuihni**
Novel
Publisher: Jidar for Culture & Publishing
Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions.
Copyright ©2026 all rights reserved.
ISBN: 978-1-291-51197-0

محمد شويحنة

فتحة في الجدار

رواية

هذه الرواية من خلق الخيال. وإذا وجد أي شبه بين أشخاصها أو أسمائهم، فلن يكون ذلك إلا من محض المصادفة، وخالياً من كل قصد.

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعيش وجوده كسؤال، بحثا عن معنى لوجوده، لأن سؤاله يحمل ارتياباً وقلقاً على مصيره.

مارتن هايدغر

[1]

في بهو المطار، وفي صالة (القادمون)، أخذه الشرود لحظات وهو يتأمل حشوداً من المستقبلين يأخذون ذويهم بالعناق والقبلات، في لحظات لقاء حميمية.. وتحول شروده إلى انفعال وهياج في الروح، جعله يرتد إلى وحشة تقول: لا أحدَ لك هنا! فلمَ عدتَ؟ وعلى الرغم من هذا، توقف في بهو الضيافة في مطار دمشق، منتظراً وصول الحقائب، وتلفت، وتصفح وجوهاً كثيرة، طامعاً برؤية أحد ما، كما يحصل مرات ومرات في محطات ومطارات.. تأمل الوجوه الطافحة بالبشر، العيون المسددة في كل اتجاه سواه، الحركة الناشطة حوله، في لحظات تفيض بشوق حقيقي، حار ومثير.. ما جعل عينيه تحتقنان بدموع خائبة لم يلحظها أحد، فلم يجد بداً من التحرك أخيراً والإشارة إلى حمال المطار، الذي التقط الحقائب واندفع بعربته، متلفتاً بدهشة هو الآخر، يبحث إن كان مع زبونه أحد من المسافرين أو المستقبلين، ثم مسرعاً نحو باب الخروج، ليتلقف سائق التاكسي المنتظر، الذي انطلق بالسيد طلال إلى أقرب مكتب سفريات يقله إلى حلب..

كان قد فكر طويلاً قبل الإقدام على هذه النقلة في حياته، هذه ليست نقلة! إنها التوق إلى الجذور، إنها تشبث هذه الجذور بترابها، عبر هاجس ظل يراود الأمل طويلاً، هو ذاته ما جعله يعود إلى حلب من سفر طويل، وإقامة دائمة متواصلة، استغرقت معظم العمر.. كانت حياة شبه مستقرة كحياة كثيرين، لكن نداء العودة لم يكن كأي نداء، ظل ينازل الإرادة في حرب مكشوفة، قاذفاً إياه أخيراً في لجة أيام قادمة، جعلته يقدم على خطوته مخلفاً وراءه صيتاً لامعاً كأشهر من عرفته (سان باولو) من تجار عرب.

عاد السيد طلال الوزان إذن يحمل حنيناً عجيباً لبلده وطفولته، وقد تزامنت عودته إلى حلب مع خروج الثوار من شرق المدينة، أواخر عام 2016، "حسناً! لعل أفضل ما في الحروب هو انتهاؤها"، ردد هذا اليقين بينه وبين نفسه، بحيث وجد الآن الفرصة متاحة لتحقيق هدف ظل يلح لسنوات دون أن يتحقق، ظل الزمن الجميل حلماً يراود الخيال

ونجوى الروح، لقد أصبح بالإمكان الآن مع توقف القتال أن يمضي بتحقيق حلمه في ترميم دار جده في حي (الفرافرة) أو تلك التي في حي (الجلوم)، أو أية دار أخرى مناسبة يتملكها في حلب القديمة أو في محيطها.. فالزمن الهارب آن له أن يُستعاد، ولحظاتُ السعد الغارقة في الماضي آن لها أن تلامس شغاف الروح مرة أخرى، أما بقايا الذكريات فقد انتظرت طويلاً من يلمها ويزيل عنها غشاوة الزمن وغبار السنين.

لم يكن رحيل آل الوزان سفراً قصيراً محدوداً تتبعه عودة، كان هجرة طويلة تعود إلى أوائل قرن مضى، جاء ارتحالهم على دفعات، واستقر بهم المقام نهائياً في الأمريكيتين. عائلة طلال وقلائل من العائلة الكبيرة تأخر التحاقهم بمن هَجَرَ إلى أوائل سبعينيات القرن الماضي، وعددٌ زهيد من الأفراد ظل في حلب، لظروف أقل حسماً، ودوافع لا تصل إلى حد التفريط والهجرة..

في حلب، وبعد سفر طويل أرهقته الحواجز العسكرية، ومشاهد القرى والبلدات المدمرة على طول الطريق.. توقفت التاكسي الخصوصي أمام فندق (سميراميس) الأقرب إلى المدينة القديمة كما طلب السيد طلال، الذي جلس في الاستراحة قليلاً بانتظار إعداد غرفته، غارقاً في النظر حوله إلى هذه الصالة المتخمة بفرش ثقيل، يسوده اللونان الخمري والذهبي، في حين لم يسعف فرش الأرض بالموكيت الكحلي، وحجز القسم الداخلي الذي خصص لاستراحة العائلات، حجزه بأعمدة نحاسية مزخرفة وقصيرة تصل فيما بينها حبال مجدولة بفخامة، كما لم تسعف الصور بالأبيض والأسود لبعض مناظر من حلب القديمة، أو منظر بانورامي لحلب الجديدة مصور من علو.. لم تسعف في جعل صالة الاستقبال تبدو أكثر من مكتب تجارة ومقاولات، أو حتى أشبه بمحل لدلال عقاري، الأمر الذي ذكّر السيد طلال، حتى قبل أن يصعد إلى غرفته مع المفاتيح، مع الحقائب، مع عامل الفندق؛ أن يسأل مدير الفندق المسيو (أنطوان) أول ما يسأل عن دلال عقارات في حي شعبي قريب من الفرافرة، وهو اسم الحي الذي ظل يتردد طويلاً هنالك، حتى من أولئك الذين يعرفون حلب معرفة عابرة، أو بالسماع..

مسيو أنطوان رحّب بمساعدته، وأجرى في الحال مكالمة بجواله، وسرعان ما حضر بعد دقائق الحاج أحمد عبه جي الدلال عارضاً خدماته السخية، فطلب السيد طلال دون مقدمات أن يرافقه غداً في جولة للتعرف على دارَيْ جده في الفرافرة والجلوم.. وفي حال عدم صلاحية الدارين للسكنى، لأمر ما، أن يكون وسيطاً في شراء دار عربية كبيرة، بشرط أن تكون في حي الفرافرة، أو في محيط القلعة الأقرب إلى الحي. مسيو أنطوان أعاد التوصية على الدلال، وأضاف "لا يهم الثمن!" أمّن السيد طلال على كلامه مؤيداً بانحناءة رأسه، وأعاد كلام مسيو أنطوان، فيما كان الحاج أحمد يرفع كفه عالياً ويضعها على رأسه.

ترك السيد طلال عامل الفندق يُدخل الحقائبَ إلى غرفته الشرقية في الطابق الأول، وأسرع هو نحو باب الشرفة، فأطل على شارع القوتلي، وعلى مدخل المنشية القديمة والمتاخمة لسوق (التلل)، فيما استدار ليطالع عن قرب ساحة باب الفرج التي ازدحمت بالبشر والسيارات والغبار، وتوسطتها الساعة الشهيرة التي راحت تمسح المشهد كله بنظرة ملل.. لكنه أحس بتبدل المشهد القابع في الذاكرة، بعد أن رأى بخيبة أن جزءاً حميماً من المكان قد اختفى شرقاً، واحتل فضاءه هناك هذا الجسم الضخم الغريب الذي يربض شاعراً بوحشته وخجله ربما، وسط هذا النسيج العمراني القديم لمحلة باب الفرج، فأحس بالضيق والتشتت وهو يديم النظر مذهولاً ببريق (شيراتون) المستلقي في حضن مغبر ومزدحم ومفتقر إلى عرق أخضر. تضايق من ذلك التنافر الحاصل بين المشهدين، وحاول أن يعود فيرسم صورة متبقية في عمق الذاكرة للطرف الشرقي المنسلخ من جسم باب الفرج، أو ما كان هنا حقيقة كما يذكر.. صف الدكاكين المتراص، كرتل متجانس من الأبنية على طول الطريق، يتوسطه مبنى بطابقين لفندق الخديوية الكبير، ومن خلف هذا النسق يختبئ حي (القلة) المفضي إلى (بحسيتا)، فيما شقت الجادة العريضة سكة الترام اللامعة، التي تمضي آتية من القلعة لتخترق شارع (القوتلي) وصولاً إلى محطة الشام في آخر حي الجميلية.. وفي الحال شاهد الترام يمر ويرفع جلجلة

أجراسه، ولحق به، وقفز متعلقاً بالعارضة الخلفية، وكاد يحس بلسعة سوط الجابي، ثم عاد وانغمس بوحشة الفراغ المحدق به، فغضّن وجهه شاعراً بمزيد من الاستياء والتحسر وهو يتابع في أسفل سور شيراتون من طرفه الغربي سلسلة الأقواس الأثرية الضخمة، والدعامات الهائلة لما يعرف بسور حلب، المدفون على عمق أكثر من عشرة أمتار تحت أقدام العابرين، تعلوه الأعشاب والأشواك المصفرة، المتطلعة نحو نوافذ شيراتون كما لو أنها صرخات احتجاج أو استغاثة.

أنا هنا الأثر الأوحد ربما من عائلة الوزان، سأتأكد من ذلك في الأيام القريبة القادمة، هذا تاريخ تجاوز المئة عام.. كان أهلي وأقربائي قد سافروا وهجروا حلب منذ زمن بعيد، منذ عشرينيات القرن الماضي، الأقرباء سبقونا، عائلتنا ربما كانت آخر من قطع جذوره بالوطن.. نهائياً، كثير من الأجنحة تقصقصت هناك.. بالنسبة لي الماضي أرجعني، الزمن الجميل، الذكريات، عدت من أجل خاطر عيونها، كل ما تبقى لي هنا ذكريات، تصوروا أنها الثروة الأهم والأكثر جذباً وأسراً بالنسبة لي، هناك بيوت لا نسكنها.. بل تسكننا، وذكريات لا تهدأ مهما ابتعدنا.. وربما كان توقف الاشتباكات بين حلب الشرقية وحلب الغربية، عاملاً دافعاً آخر لي للعودة.. الآن صار بوسعي أن أتنسم عبيراً غير مشبع برائحة الدم والخراب..

أبنائي وصحبي حاولوا ثنيي عن العودة دون طائل، كان كل شيء مرسوماً في غاية الدقة، عرفت أين أمضي ومتى ولماذا، حتى أني رفضت أن أصطحب أحداً من أبنائي رغم إلحاحهم، حتى لا أكون ملزماً بالعودة إلى هنالك مع من اصطحبته، أردت أن تكون عودتي إلى حلب خالصة لوجه الذكريات، لا يشوبها دخيل أو طارئ ما، لا يعكرها ما يشغلني ويهمني، أصررت على موقفي، وأسلمت الزمام لشغفي.. وكان الوداع قاسياً ومؤلماً، فقد أشعروني كما لو أنهم يرونني وقتها لآخر مرة، لا سيما أني رفضت أن أحدد موعداً للعودة، والأدهى أن عبارة "على الأغلب لن أعود" زلقت مني، لا أدري كيف، ربما

لتعبر عن حقيقة ما في داخلي فعلاً، وما يشدني إلى وطن الجذور، ما دفعني _ ولا أجد تفسيراً لذلك _ أن أضحي بكل شيء، بل بأشد الروابط الإنسانية قوة.. أبنائي.. أقنعت نفسي أنني سأسعى إلى دعوتهم والإقامة معي بشكل دائم أو متقطع فيما بعد.. ولا أدري إن كان هذا سيتحقق...

[2]

ترك السيد طلال الشرفة وجلس في الداخل مسترسلاً مع الذكريات، وسط جدران باهتة تحجز الشوق وهذا النزوع إلى المكان، ذكريات باتت على مرمى خطوات أو دقائق تفصله عن حلب القديمة وأوابدها.. لكنه في الوقت نفسه أحس بتباعد الزمان وتلاشيه واختفائه خلف أكداس من الأيام.. تذكر.. في فترة ما من الماضي.. الماضي الذي مضى فجأة، فيما ظلت صوره ماثلة لا تبارح، ظل جزءاً صميماً من حياة.. كان كل شيء قد استقر، الأماكن والبشر، تفاصيل الحي والحارة والبيت، الدرج والسقيفة والسطح وستارة القرميد الأحمر، أعشاش العصافير، المزراب والجب والشجرات وأصص الزرع، الدالية المتسلقة على السطح والياسمينة والعسلة، الجيران والأقارب، الكل موجود في الزمان والمكان، الكل أمامك، ربما في جميع الأوقات، وفي الأمكنة ذاتها، أعمام وعمات، أخوال وخالات، جدان وجدتان، عجائز في سن متقدمة جداً يأوون إلى دار تضمهم، اسمها دور الكبار.. أبناء الحي، صغاره وكباره، فتياته ونساؤه، شيخ الكتاب ثم الروضة فالمدرسة، سمان الحارة والفران والبسطاتي وبياع البالوظة، المخللاتي والسنكري والإسكافي، الصباغ والفرواتي والبيطار ومبيض النحاس، الخانجي والدلال والساعاتي، ولا أنسى ما انطبع في الذاكرة ولا يمحي، النول العربي بشبابيكة المطلة على الزقاق، وصوته الذي يتردد من حارة إلى أخرى، فيسلمك صوت إلى صوت، لحن مرافق يتكرر.. وعلى رأس ما هجع في الذاكرة هناك سوق المدينة الأثري، المتاخم للحي، وتفرعه العجيب لعشرات الأسواق والمهن، بدءاً من سوق الزرب وانتهاءً بباب أنطاكية..

ذكرياتي هنا بعضها هاجع في زوايا الروح لا يفارقها، وبعضها الآخر يجول في خاطري أشبه بالأحلام العصية، وفي كل مرة ألح على استحضارها، تغيب أكثر، فأعود أراوغها من جديد دون طائل، بعضها ما بعد الآخر مما حكاه جدي منصور عن حلب وحاراتها الأعرق وأبوابها وساحاتها وقلعتها، والأهم الدار العربية، وحنينه الدائم إلى عودة لم تسعف

حياته المديدة في تحققها.. في كل مرة استحثُّ الذاكرة لاستحضار بيت الطفولة فتعود لتظهر أمامي صورة باهتة بالتأكيد لفسحة صغيرة تدعى السلاملك، على جنبيها غرفتا ضيوف أو مسافرين، وهذه تفضي إلى الحرملك، وهي صحن واسع لدار مربعة الشكل وكبيرة متباعدة الجدران، ينهض في طرفها الشمالي الليوان المرتفع درجتين عن الأرض، كنت أتسلقه زحفاً، فيما يرتفع قوسه عالياً مصافحاً غيمات بيضاً تترنح في الزرقة الصريحة، في الوسط البركة الحجرية تظللها شجرة الليمون، وتتلاعب بغصونها المدلاة قطة شقراء ناعسة، في زاوية الدار هناك في البعيد دالية الحصرم المتسلقة على السطح والمتوجة في طريقها شطراً من الجدار القبلي وسور الشرفة العالية للمربعات الشرقية، في الزاوية القبلية هناك القبو المفعمة شبابيكه القصيرة بعبق الجبن والسمن والمؤونة، روائح فاغمة تشدني فأنسى نفسي طويلاً أمامها، وهناك في الأعلى، من الجهة القبلية، حيث الدَوَخانة بقوسيها النحيلين، ببركتها الصغيرة المنحوتة من حجر واحد، ومربع عن يمينها وآخر عن شمالها، وفي صدرها المطل على الحارة الكشك الخشبي بزخارفه ومقرنصاته، بثقوبه السحرية التي تري أرض الحارة والمارين وعربة كارو مركونة في الطرف الموارب للحارة، وجانباً من مدار النشا ببابه الواطئ ورائحته الصاعدة باستمرار نحو الشرفة.. الروائح! لا شيء كالروائح يثير الذكريات، الروائح تحيي أزمنة مضت، تستدعي، تكشف وتزيح، طبقات مكدسة بعضها فوق بعض، قطعة ساحرة من لحظات هجعت هناك، غارقة في العطر وفي الظلال الندية، حفنة ياسمين، عسلة، ريحانة، فلة، كبادة، دالية، روائح طبيخ، جبن، صابون، دريرة حلبية، عطور، سكاكر.. تزيح الرائحة الطبقة الأولى فتشف الثانية لتكشف عن الثالثة وعما هو أعمق وأعمق، وأكثر غوراً في الماضي واللمحات والذكريات.. إلى ذلك ثمة روائح مفقودة، عصية على الحضور، غابت مكوناتها فغابت، روائح انطوت مع زمن وسكنت هناك كذكرى محنطة، كذكرى لا تشبه الذكرى، مثل شجن شفيف وطويل، لكن دونما خيبة، أمل ناعم ورحيم بأنك ستعثر عليها يوماً، ستتشكل مكوناتها على نحو غامض، مفاجئة إياك وعائدة، حاملة معها تلك القطعة الأجمل من الماضي.. البحث عن الروائح الضائعة، هو تحديداً ما يوصلك إلى

الزمن الضائع، البداية كان يجب أن تكون من العبق والأريج والضوع وحتى من القتار.. في كل الأحوال كان ذلك الماضي هو الزمن الآخر، الزمن الذي لا يقاس، ولا يُستعاد، لكنه لا يُنسى..

وأتساءل الآن: هل كان ذلك الزمن زمن السعادة المطلقة! بالنسبة لنا نحن الصغار وقتها، أجل! لكن أمر الكبار كان بالتأكيد يختلف. بالنسبة إلينا كانت طفولتنا زمن المسرات الخالصة، زمن الفرح المصفى، إنه سحر الزمن الأول، سحر له طعم فريد أول، خالد عصي على الزوال، ونحن في غمرته كنا نعجب لأحزان الكبار، لدمعة في عين عمة أو جدة، لآه تتصاعد من دور الكبار، لمشي كما السلحفاة لخال الأم زائراً يوزع علينا السكاكر والقبلات، ثم يعود ليرسم تقطيبة على الجبين.. وحتى جدي منصور، رغم النجاح الذي حققه هنا وفي المغترب، يبدو لكل من عايشه، ينوء بأحمال من الأسى والخيبات، كانت سعادة ما باستمرار في حالة هرب دائم من بين يديه، "ذنب السعادة أملس"، كان يرددها دائماً، لكنه لم يكف عن محاولة البحث عنها، عن طيف سعادة، بالهجرة أولاً، وفي محاولة استحضار الوطن هناك ثانياً، لذلك تراه في رحلة البحث عما ضاع، وبدافع من حنين جارف، قد بنى داراً على الطراز العربي، على قطعة أرض في ضاحية من ضواحي (ساو باولو)، لكنه ظل يجدها غريبة موحشة، لم تسعف قلبه بنجوى حالمة.. حيث لا حارة، لا عطفة، لا سوقاً مسقوفاً على كتفها، لا مئذنة خشبية واطئة، لا مؤذناً ناعساً يصعد درجاتها، لا دكاكين، لا فرناً وخبزاً بلدياً وكعك عيد.. لا دالية وبرتقالة وريحانة وفلة، لا بل إنها بدت لكل من رآها غريبة الشكل، غير مبررة، وغير مقنعة، وغير مريحة، كأنها مجرد صورة من الماضي لا تصلح لمكانٍ لم يعرف بعد ما هو الماضي، ولا كيف يحافظ عليه.. كانت هذه الدار في سان باولو، رغم كل الجهود في تصميمها وبنائها، أشبه بقشرة خارجية، تحاول أن تعيد شيئاً من ذاكرة حلب الغابرة، لكنها لم تكن أبداً حلب الحقيقية، ولا رائحة أزقتها، ولا حضن الطفولة، ولا سحر الحكايا.. في النهاية لم يكن هناك مبرر لأن تحجب جمال الطبيعة في الريف الأخضر

المترامي بجدران عالية لا تتيح رؤية شيء خلا السماء.. بعد فترة وجيزة عاد جدي فأدخل عليها تعديلات.. أزال جداراً كاملاً مع غرفه، لتطل دونما ستر على الشرق الأرحب، رفع على السطح جناحاً بسقف مائل وقرميد أحمر، بقي الليوان بقوسه المرتفع جليلاً وحزيناً، فلا شيء يعمله هناك غير تذكير أهل الدار بجنة مفقودة.

[3]

استطاع طلال الوزان في مهجره البعيد، وعبر فترة وجيزة من حياته، أن يحقق قفزة هائلة في سباق جمع المال، من خلال عمله في الصياغة والمشغولات الذهبية، مهنة أبيه وأجداده.. في الوقت نفسه فارقته مشاعر كان ينوء بحملها لمجرد تفكيره بأنه لم يسر شوطاً أبعد في دراسته وصولاً إلى نيل شهادة جامعية؛ سواء بسبب سفره مع العائلة إلى البرازيل، أو بسبب عزوفه أصلاً عن الدراسة بعد نيله الشهادة الثانوية. لا يهم! فعائلة الوزان أساساً انصرفت إلى الحرفة والتجارة لا إلى نيل شهادات من ورق، لا يهم! ما دام الهدف في النهاية العمل وكسب المال... فأنا قد تجمع لدي في البنك وحده، دون الأشياء العينية، ماذا أعد، وبالعملة الصعبة، عشرات الملايين من الدولارات ومثلها من اليوروهات، ويرتفع الرقم أكثر باستمرار مع نهاية السنة المالية.. أيضاً لدي من الذهب أونصات كثيرة بأوزان عديدة، كرأس مال ثابت، مودع في بنك سويسري، أسعاره شهدت قفزات هائلة في السنوات الأخيرة.. جميل! كنت أشعر بحدسي أن سعره العالمي سيرتفع، ومنذ سنوات لم أشأ أن أفرط بغرام واحد منه، ثمة حساسية ما أمتلكها، هي أشبه ببوصلة أمام عينَيّ، تدلني دائماً على ما يحيا في السوق وما يموت، ما ينهض وما يكبو.. كثير من أصدقائي التجار كانوا يكلمونني بالهاتف، بوارد السؤال عن الصحة والأحوال، ثم لا يفوتني التقاط الهدف غير المعلن، وهو استجراري إلى كلمة أفوه بها، كلمة من ذهب، أجل! ما أفوه به أمامهم كلام ثمنه ذهب. وبالمناسبة فإن اسم عائلتنا (وزان) لم يأت اعتباطاً، إنه تحديداً كما جاء في كتب عن عائلات حلب، يعني (وزان الذهب). جدي منصور، كأشهر صائغ في العائلة وفي السوق، هو من كان يحرر الوزن في الصفقات الكبرى التي كانت تجري في خان الصاغة، فلا يخطئ بمقدار سنتيم واحد، أليست هذه أمانة؟!. أليست أمانة أن يكون جدي مستودع المئات من (أونصات) الذهب الخالص، عيار 24؟! يودعها التجار لديه، وهو الذي يقوم بالوزن والبيع والتسليم، أو باقتطاع ما يلزم لأعمال الصياغة.. وكل شيء مسجل لديه بالسنتيم، كما تبينه الجردة السنوية التي

تبدأ في النصف الثاني من الشهر الأخير في السنة الميلادية من كل عام.. ينتشي التاجر وهو يرى رأسماله ينمو أو يتضاعف، ويجزل لجدي العطاء، فهو الوزان الخازن والمؤتمن.. وهكذا كان جدي أشبه ببنك مركزي صغير، لكن رأسماله لم يكن الذهب وحده، بل الثقة. تلك المادة الشفافة التي لا توزن بالميزان، لكنها أثقل من كل السبائك.

وكثيراً ما تطلع يهود السوق إلى هذا العمل بحسد لم يخفوه، فمثل هذا العمل كان عملهم على طول فترات التاريخ.. وما أعرفه على أية حال أن تجارة الذهب التي كانت رائجة، وعلى طريق الحرير تحديداً، كانت بمجهود جدي، بدليل أن كل الخبرات فيما يخص الذهب، تجارةً وصياغةً وخزناً، تجمعت لدينا، بل هي المهنة الأهم التي زاولها معظم من هاجروا من عائلة الوزان.. وعلى رأس هذه الخبرات الثقة بالوزن والثقة بالائتمان والأرباح، (وزان) كم أحب هذه الكنية! لكن مهلاً! ما الذي يدفع رجلاً قضى أكثر من خمسة عقود بعيداً عن مسقط رأسه، وحصّل كل هذا الثراء ليعود الآن؟! إنها تلك اللحظة التي يدرك فيها أن المال الذي جمعه طوال حياته لا يمكن أن يشتري ذاكرة الطفولة، أو رائحة تراب حلب، أو صوت الأذان من مئذنة المسجد الأموي... إنها لحظة اليقين بأن الجذور ليست مجرد ماض نعيشه، بل مستقبلاً نصنعه لأبنائنا وأحفادنا. أنا حقيقة استطعت جمع المال في بلاد الاغتراب، لكني أدرك الآن بعد نزيف العمر أن تلك الأوراق البنكية لم تمنحني الدفء الذي يمنحني إياه جلوسي تحت دالية في حلب القديمة، أو شم رائحة الياسمين في فناء بيت الجد، أو سهرة طربية في ظل النجوم. وأدرك أيضاً بوعي كيقين، أن النجاح في الواقع ليس في حجم الحساب البنكي، بل في عمق الجذور التي تغذي الروح، وفي قوة العلاقات العائلية التي تصمد أمام تقلبات الزمن، بل إن المغامرة الحقيقية ليست في جمع المال، بل في استعادة ما فُقد من تواصل وذاكرة وهوية.

نعم! ربما عدتُ لأن العودة إلى الوطن حين يسقط، هي أكثر العودات صدقاً. من السهل أن تعود إلى وطن مترف باذخ، يرحب بك ويجلسك في صدر المجلس، لكن أن تعود إلى وطن يتفكك، يتناثر كالرمال، وفي عينيك دمعة وفي جيبك مال وفي صدرك حلم... تلك

هي المغامرة الحقيقية، وأنا قضيت سني عمري ولم أكن أعرف أن المال يمكن أن يكون قفصاً ذهبياً، حتى صرت سجينه، إذ إن صعودي المالي المتسارع لم يمنحني يوماً النشوة التي وعدتني بها أحلامي، بل كان هناك، في زاوية مظلمة من روحي، ثقل لا ينوء به إلا من عرف أن ثمّة شيئاً مفقوداً، شيئاً لا يباع بالذهب، ولا يوزن بميزان الجد منصور.. وكثيراً ما كنت أتساءل: حسناً! هذه بوصلة الذهب، لكن أين بوصلة الروح؟!

شعر السيد طلال بجوع استرقه من تداعياته، سأل بـ(الأنترفون) عامل المقسم عن العشاء، فأخبره أنهم يقدمون الوجبة المسائية في السابعة، سأل إن كان يستطيع أن يطلب شيئاً إضافياً، وأبدى رغبته في أن يكون مع العشاء العرق والتبولة والكبة النيئة وكل ما هو متوفر من المازة والفاكهة.. كان يطلب أصواتاً وروائح أكثر مما يطلب طعاماً. كان يطلب حلب. كان يطلب طفولته. كان يطلب الجلوس على بساط مفروش، وسط العائلة، حيث لا أحد يوزن بالدولار، ولا تقاس القيمة بالأونصة.

جلس ينتظر، وحاول التسلي بالتلفاز الذي كان يبث أخبار المجموعات الإرهابية المسلحة التي (تهدد أمن الوطن) محتلة شمال غرب المدينة.. قلب شفتيه وكبس زر (الروموت) منتقلاً إلى محطة أخرى، بينما راح يفكر: لا أدري إن كان من سوء حظي أم من حسن حظي أنني وصلت إلى وطني الأم في وقت بدأ فيه كل شيء يتداعى ويسقط، لكني أملت أن تكون الفترة بداية سقوط العرش الملحي، عرش الأبد، الذي بنته الأوهام، العرش الذي ظن الكثيرون أنه لا يطال، أحاطوه بالقداسة المزيفة، تماماً كما لو أنه العرش الأعظم، أنا جئت أبحث عن عرشي وسط هذا الركام، وبين هذا الزحام من البشر والخرائب، في ظني أنه يمكنني على الأقل إنقاذ ما يمكن إنقاذه.. سمعت هناك ما يجري هنا، وما جرى، في أوطان عربية أخرى، رغم ذلك عدت، ربما من أجل ذلك عدت.

أطفأ طلال التلفاز شاعراً بالملل، الصمت الذي حلَّ كان أثقل من أصوات القنابل التي رأى وميضها للحظة على الشاشة منقولة من أحياء حلب الغربية. إنه صمت المدينة

الذي يحل بعد السابعة مساءً، المدينة التي تحبس أنفاسها خلف نوافذ مغلقة وقلوب مكلومة. تنهد.. لم يكن يحتاج إلى شاشة ليرى ما يجري، كان يكفيه النظر من الشرفة، إلى ذلك الجرح المفتوح المسمى (باب الفرج)، وإلى (شيراتون) الذي يشبه نعشاً فاخراً مضيئاً، وُضع في مقبرة عشوائية معتمة.

دُقَّ الباب. كان عامل الغرفة يحمل صينية العشاء. رائحة التبولة والكبة النيئة اختلطت فجأة برائحة طبق المشاوي الموصى عليه من مطعم (شيش كباب) في الحارة الخلفية للفندق، الطبق الذي لم يساهم حقيقة في محو رائحة الغبار والوقود القديم المتسلل من النافذة. بدا المشهد مفارقةً قاسية: فخامة صينية العشاء مكللة بفاخر الطعام والشراب، في غرفة فندق باهتة تطل على حرب.

تأمل صينية العشاء لكن شهيته تبخرت. جلس شارداً يقرأ ما بداخله، أخذ رشفة من العرق، شعر بحرارته تسري في حلقه كسكين بارد. "لماذا عدت حقاً؟" سأل نفسه المرة بعد المرة. هل يكفي أن تكون الذكريات هي الوطن؟ أم أن الوطن هو الحجر والشجر والبشر الذين يملؤونه؟ البشر الذين غاب معظمهم، أو تغيروا حتى لا يعودوا قابلين للتعرف.. فجأة انقطع التيار الكهربائي، وحلَّ في الغرفة ضوء إسعافي خافت.. تناول طلال لقمة من الكبة النيئة، طعمها قوي، حار وأصيل، كأنه طعم الأرض التي عاد إليها. لكن الأرض نفسها تتألم.. فجأة، تذكر جملة جده منصور وهو على فراش الموت في سان باولو، يمسك يده بقوة لا تتناسب مع شيخوخته: "الدار يا طلال... الدار العربية... هي البوصلة. إذا ضاعت البوصلة، ضاع كل شيء. حتى الذهب يصير تراباً." كان يظنها مجرد حنين عجوز، (نوستالجيا) ضاغطة، الآن، وفي قلب هذا الخراب والعتم، فهم أن جده لم يكن يتحدث عن مبنى حجري، بل عن فكرة، عن نظام كوني صغير، عن جذور تشد الروح إلى مكانها في العالم. فكر للحظات أن الدار العربية كانت نموذجاً مصغراً للتوازن الذي افتقده العالم: السلاملك للرجال من الزوار والمسافرين، الحرملك لعموم العائلة، الليوان للاستقبال والانفتاح المحتشم، البرْكة للبرَكة والتأمل، الأشجار للحياة والظل،

الكشك بفتحاته الخفية للخصوصية والمراقبة، السطح للتواصل مع السماء.. كل شيء له مكانه ووظيفته وجماله. نظام انتُهك هنا، في هذه المدينة الغريبة، وفي روح جده نفسه، الذي بنى إمبراطورية من الذهب لكنه فقد خريطة روحه، حتى أفضى يوماً لأحد أصدقائه: "أدفع نصف ثروتي مقابل رجوعي إلى حلب."

فيما بعد فكرت وتأملت جيداً في قوله، ما جعلني أدرك أنه كان يجيل في خياله فكرة شديدة العمق: الحنين الحقيقي ليس دائماً حنيناً إلى الماضي، بل قد يكون حنيناً إلى الإمكان، إلى الحيوات التي لم نعشها، والطرق التي لم نسلكها، والكلمات التي لم نقلها، وكان بإمكاننا أن نفعل. وهنا يتحول الزمن إلى تجربة وجودية معقدة؛ فالحاضر نفسه يصبح شيئاً هشّاً، سرعان ما ينقلب إلى ماض مؤجل، بينما تظل الذات معلقة بين واقعها وما تتخيله عن ذاتها الأخرى الممكنة.. وأظن أن بناءه للدار العربية في ساوباولو لم يكن أكثر من محاولة لإحياء الممكن وما مضى دون تحقق..

[4]

في الصباح الباكر، قبل أن تستيقظ المدينة تماماً، نهض السيد طلال وهو يفكر في صور المكان المنسي، استحضر بعضها على نحو غامض، رسم خريطة للحي الغائر في الماضي البعيد، رسخت بعض أجزائه وأفلت بعضها الآخر، "سأرى اليوم ما يتطابق منها مع خيالي"، حدَّث نفسه، سريعاً غادر غرفته، يحمله شوق إلى ذكريات هاجعة على مرمى قريب من الروح.. جلس في البهو الفارغ ينتظر، مرت دقائق عبر هواجس من صبر وشغف، ظهر الحاج أحمد بالباب منتشلاً إياه من تداعياته بسلام حار.

- يسعد صباحك أستاذ طلال.. ربي يوفقنا اليوم، نحن والحظ، سنرى! أمامنا جولة يا أستاذ! جولة. في شي احتمال يعجبك.. لكن...!

توقف، بعينيه الصغيرتين النافذتين تلقى نظرة طلال المتسائلة، نظرة قلق خفيفة تعبر عينيه، أردف الحاج أحمد وكأنه يزن كلماته:

- الأحياء القديمة تغيرت، كثيراً تغيرت، والدور العربية التي كما تحب.. صارت مثل جواهر نادرة. طلبك كما فهمت أن أجد لك داراً في حي الفرافرة، وفيه حقاً أجمل دور المدينة، لكن هذا صعب الآن، بعد كل ما جرى، صدقني لم أتمكن، أصلاً الحي اقتطع نصفه في الأساس عندما شقوا شارع السجن، وما تبقى لحقه دمار كبير، الآن سترى!".

رد طلال:

- يا حاج أحمد هذا حي غال على قلبي، عشت فيه طفولتي، وكما قلتَ أنت.. أكثر منازله رائعة."

- سيد طلال إن حلب القديمه الواقعة خارج السور.. وأنت تعلم، لاتقل أهميه عن التي بداخلها، بعضها أكبر مساحة من التي داخل السور، ومعظمها يعود

للعهد العثماني، وحتى للعهد المملوكي، وهذا الجزء من المدينه يحتضن مساجد رائعة، وكنائس وحمامات، وأسواقاً وخانات، ومنازل غاية في الروعه والجمال، وربما تفوق بيوت الفرافرة..

حرك طلال رأسه دلالة الرفض، ثم قال:

- يا حاج أحمد نحن نبتعد عن الموضوع! قلت لك في حي الفرافرة بيت كبير لجدي الأكبر وجدتنا زلوخ، هذا إن وجدناه سليماً فهو المراد، لكن أقول لك.. وإن لم يكن ذلك فجدي منصور له دار فخمة هنالك في حي الجلوم، وأذكر أنها اشتهرت باسمه (المنصورية)، سكنت فيها جدتنا أسّوم مع اثنتين من عماتنا العازبات.. هذه الدار حضنت ذكرياتِ طفولتي الأولى.. ياللذكريات! كان جدي وأعمامي وحتى أقاربنا يتنقلون ما بين الفرافرة والجلوم.. هناك بعد مدخل باب قنسرين، بمجرد السؤال عن بيت المنصورية يدلونك.. في كل الأحوال إذا لم نجد ما نطلب، فالمهم أن تكون الدار داخل السور، أو في محيط القلعة..

ظل الحاج أحمد صامتاً ثم سأل:

- إذن إلى أين الوجهة الآن؟
- إلى الفرافرة يا حاج، نمر بحي الفرافرة أولاً ونرى ما حل بالبيوت هناك..

انطلقا باتجاه السبع بحرات في سيارة مخلعة، ودخلا طريق السجن القديم، دارت عينا طلال في كل الاتجاهات، شيء من خيبة صادمة داهمه، لم يكن يتصور ما رأى، صور الخراب النادبة كانت هناك، شمس ساطعة على أنقاض، كان المشهد على جانبي الطريق سفحاً من حجارة وتراب.. أخذه الشرود بعيداً، تأمل صنيع الثأر بالمدينة، وهذا الحقد الطاغي مطبوخاً على نار هادئة اسمها الكراهية.. الحاج أحمد رفع صوته بـ"حسبنا الله

ونعم الوكيل"، فاتحة قول داهم، لكن طلالاً ظل صامتاً كما لو أن المشهد عقد لسانه، أو أن ما رآه أفظع من أن تقال فيه كلمات.

توقفت السيارة أمام مفرق الفرافرة، ترجلا ماشيين وسط خرابات، انعطفا باتجاه بيت الجد خلف مدرسة سيف الدولة، وتوقف طلال مصاباً بالذهول، وهو يرى حجم الدمار الذي طال الحي.. بصعوبة حدد موقع الدار، عرفها من جدار باق وكشك بان أشبه بقفص عصافير، لكن الدار خلف الجدار كانت هاجعة هناك تحت أكداس من الحجر والتراب، علتها أنقاض وأعشاب وبعض جذوع الأشجار.. تلمس الجدار المصدّع كما لو أنه يبحث عن حقيقة غامضة، ربما عن طفولة ترمدت محترقة بنيران غادرة. عاد فتأمل المشهد كله، وغاب في لحظات من أسى وخيبة، بينما كان الحي برمته غارقاً بسؤال مبهم عن حقيقة ما جرى.. نقل الخيبة بكلمات حزينة للدلال، الذي اعتصم بالصمت مشيعاً جواً من العسر وضلال المقصد.

تحرك طلال ومدّ قدمه في زقاق جانبي، تبعه الحاج أحمد، جالا معاً في أزقة الفرافرة.. كانت الحارات المتفرعة عن الحي تشبه وجوهاً صامتة محنطة، لا حركة، لا نأمة، سكون جنائزي لف المكان.. واستطاع طلال التقاط أنفاسه في محاولة استعادة بعض شواهد الماضي:

- هنا كان خان النحاس.. وهناك مقهى أبو عرب.. وهذه الحارة تفضي إلى خان الوزير

همس طلال وكأنه يُحدّث نفسه.. ردّ الحاج أحمد بصوتٍ مبحوح:

- صارت كلها ركام يا مولانا.. غارات الطيران والبراميل المتفجرة أكلت الأخضر واليابس.

لم تكن الخرائب مجرد حجارةٍ مبعثرة؛ بل طبقات من الحياة راحت تُنزع من العيون واحدةً تلو الأخرى. حتى رائحة الياسمين التي علقت بذاكرته منذ الطفولة، اختنقت تحت رائحة الغبار والحرائق القديمة. بعد ساعة من التجوال بين الخرائب والأطلال، وصلا إلى الجانب الشمالي من القلعة، التي بانت الآن بكل جلالها.. توقف طلال، تصفحتها عيناه لأول مرة، منذ أكثر من نصف قرن، بعطش لا يرتوي، بدت له كما لو أنها كراس بقي مفتوحاً على صفحة الخلود، بأن ظلت رابضة هناك، وهازئة بالخراب الذي أحاط بها.. أمامها بدت أكداس من حجر وتراب تمثل كل ما تبقى من حي الفرافرة.. دخلا حارة الزهراوي المهدمة، ثم وقفا أمام بوابة حجرية سقط نصف قوسها. أشار الدلال إلى ركن غائص في الوحشة..

- هذه دار آل المراد.. أقدم دار عربي في الحي، لكنّها أصيبت ببرميل..

قال الدلّال، ووقف أمام الباب متردداً، مد راحته وربت على الباب مرات، ولم يسمع أي صدى، دفع الباب بصعوبة، فإذا به يئزّ كصرخةٍ محبوسة. كانت الفسحة الداخلية قد تحوّلت إلى حفرة امتلأت بالتراب والحجر، أشجار الكباد والليمون التي حلم بها طلال كانت مقطوعةٌ كالأذرع ومتهالكة في الزاوية، وحيث كان كشك الدار يطل على الحارة، بقيت ركيزتان من حجر وخشب تحملانه كقفص خشبي مائل أشبه برأسٍ غارق في اليأس. "الكشك ذاته.." تمتم طلال وهو يديم النظر في الخشب المحترق. فجأةً، خرجت من ظلّ الليوان سيدة عجوز بملاءة سوداء، عيناها باهتتان:

- مَن تطلبون؟

أجاب الدلّال:

- هذا السيد طلال من أمريكا.. يبحث عن دارٍ عربية.

حدّقت العجوز في طلال:

- دار عربي! كل حلب صارت خرابة!

ثم أشارت إلى غرفة جانبية:

- نسكن هنا أنا وابنة ابني بعد ما قتلوه.. الدار ليست لنا، لكن أهلها هجروها، ونحن من بقي بلا مأوى سكناها.

شعر طلال بالمشهد أمامه ينطق بأهوال جرت.. هذه ليست الدار التي حلم بها، بل هي مرآة لبلاد تحتضر. أراد أن يقول شيئاً، لكنه اعتصم بصمته مختنقاً بعبرات سانحة، ونظر بأسى إلى الحاج أحمد الذي عالج الموقف سريعاً بسؤال مهني:

- أين الوجهة الآن؟
- دار جدي منصور يا حاج أحمد كما أخبرتك..
- أين هي بالتحديد، جلوم الكبرى.. الصغرى؟!
- في الجلوم، أنا لا أتذكر موقعها الآن، ولا أعرف إن كانت موجودة أو سويت مع خرائب كثيرة كهذه! وهي على أي حال تظل قريبة من القلعة كما أحب.. سنحاول أن نفتش عنها، ونراها..

في الطريق إلى الجلوم عادا فخرجا إلى شارع السجن العتيق، وقف طلال هذه المرة يتأمل الخراب الشامل على طرفي الشارع الممتد. من خلفهما كان جامع المهمندار القائم على كتف سوق الخابية قد تهالك وانشطرت مئذنته الأثرية الفريدة.. في مقابله بدت قهوة البرتقال الشهيرة حُجْرةً معلقة في الهواء بلا سلالم.. تابعا الطريق في مدخل السويقة الشهيرة، وافتقدا هنالك معالم المكان تماماً! حوقل الحاج أحمد مشيعاً مزيداً من الأسى واليأس في نفس طلال.. مشيا في صمت الخرائب، وتوجها يائسين عبر تلال الأطلال باتجاه حارات الجلوم، بصعوبة شقا طريقهما في مدخل سوق الحدادين.. كان الدمار قد أتى على جزء من المدرسة الحلوية أمام الباب الغربي للجامع الأموي.. هناك وفي محيط

المسجد بدا المشهد مريعاً، أماكن تبدو وكأنها تعافت جزئياً من غيبوبة، لكن بندوب لا تمحى. جدران مخرومة، واجهات محلات مسودة من دخان الحرائق، درابيات مبقورة أو منتزعة من سكتها ومقذوفة إلى الخارج بفعل انفجار، شبابيك مسدودة بالقرميد، مبنى طابقي كبير على اليسار انهارت شرفاته وتكدست فوق بعضها، ثم بين الحين والآخر، محضر آخر سليم على نحو معجز، كأنه يتحدى القدر. في اللحظة والتو خطر في بال طلال فندق شيراتون القائم وسط كل هذا الدمار، كيف لم يصب بأذى! ولو برصاصة واحدة!

أعاقت تحركهما الحجارة والطرق المسدودة، فعادا وانعطفا يميناً باتجاه طلعة خان الوزير.. وبدت لعينيهما خرائب المسجد الأموي في الداخل وفي السور الخارجي، فيما اختفت المئذنة وسط تلال من الحجارة الصريعة.. استمرا صاعدين باتجاه القلعة، وانعطفا جانباً سائرين باتجاه سوق الزرب، ثم بمحاذاة أنقاض فندق (الكارلتون) وصولاً إلى خان الشونة، فدخلا في الحارة المتاخمة له والمؤدية إلى سوق القطن. أحبط طلالاً في بدايتها مشهد الخراب الذي ابتلع المدرسة الخسروية ولفظها جبلاً من ركام، وعلى طول الطريق المفضي إلى حي الجلوم تكدست الأحجار على طرفي الممر الترابي بأيد خبيرة، فبدت كما لو أنها كائنات يائسة لكنها منضبطة راحت تنتظر بصبر من يرفع بنيانها من جديد.. وصلا حارة السفاحية، وتسلما الطريق باتجاه حارات الجلوم..

- هنا تبدأ الجلوم. سوق المْدينة الأثري يفصلها عن الفرافرة كما ترى.

قال الحاج أحمد.

مشى طلال كالمسرنم على هدي الذكرى.. دخل في زقاق ضيق مرصوف بحجارة صفراء لمعت حجارتها كأنها مصقولة بأقدام ألف عام، وحده خيط أخضر من نبات بريّ شق طريقه بين الفجوات يذكر أن الحياة أصلب من الصخر. "أظن هنا! سنرى..."، قال وهو يشير إلى عطفة تنفتح أمامهما مفضية إلى ساحة صغيرة، راح طلال يتلفت متأملاً

محيطها متمتماً بكلمات غامضة.. صافحتهما رائحة مختلفة هنا، ليست رائحة الغبار والخراب فقط، بل رائحة تراب رطب، ياسمين متسلق على جدار مهترئ، وخبز يخرج حديثاً من فرن قريب.. "فرن الأصفر!".. تذكر طلال الاسم مندهشاً، صوت مطرقة تطرق حديداً في مكان ما. حياة نابضة، خجولة، لكنها حياة.

[5]

وقف طلال أمام باب خشبي ضخم، ذي ضلفة واحدة تغطت بصاج مزخرف بمسامير معتقة، وبتشكيل هندسي تتوسطه (سقاطة) نحاسية على شكل كف مغلقة على كرة. أطال النظر إلى قوسه الحجري العالي.. "إنه هو!" رددها مرات بصوت خافت، كان الباب أعلى من مستوى الشارع بدرجة حجرية تشكل نصف دائرة متآكلة، أشار بيده إلى الباب والجدار العالي يتوسطه الكشك الخشبي، كما لو أنه استعاد ذكرى قديمة.. "إنه هو!" عاد فحدث نفسه: لكن، الحارة تبدو كأن الزمن قد نسيها مرتين: مرة قبل الحرب، ومرة بعدها..

أدار رأسه ساهماً، بيوت الحي بدت له باهتة، كعجائز منهكة، بعضها مهدم جزئياً، وبعضها الآخر بدا على نحو مقحم بنسيج عمراني مغاير، كبيوت إسمنتية حديثة بنيت على عجل..

سمع الحاج أحمد همساته، فسأل:

- أهذا هو؟ متأكد؟
- هو نفسه.. عرفته من كشكه والسيباط هناك! لولا ذلك لما عرفته..

خطا الحاج أحمد خطوتين جادتين وطرق الباب ثلاث طرقات متباعدة، بوقار. فتح الباب رجل ستينيّ، يرتدي قبعة ومعطفاً جلدياً، تلوح برأسه بعض علامات الشيب. نظر إليهما بتوجس..

- أبو خالد! أنت هنا!

بدا أن الحاج أحمد والرجل على معرفة سابقة..

- معي السيد طلال الوزان، يعود بعد غياب طويل إلى منزله هنا في حضن الجلوم وفي بيت الأجداد..

تغيرت ملامح الرجل فجأة من التوجس إلى ترحيب حذر.

- الوزان! أنتم أهلنا.. يا مرحباً.. أهلاً وسهلاً، تفضلا. عفواً على.. على ما تريانه. الدار.. مهجورة من زمان، وأخذت نصيبها من القذائف أيضاً..

انزلق طلال عبر الباب الضخم.. ودخل الزمن. تبعه الحاج أحمد باطمئنان. الفسحة التي طالما طاردته في أحلامه تجسدت أمامه الآن، ساحة الدار، والبركة، والياسمينة، والليوان بقوسه العالي.. أغمض عينيه فسمع الأصوات: صهيل حصان من بيت قريب، بكاء طفل كان ينام في المهد الخشبي المعلق بالسقف، نداء الجدة لإعطائها كبة الصوف المتدحرجة، ضحكات بنات كن يلعبن في البركة قبل أن تجف، همهمات رجال كانوا يتناقشون في السياسة والشاي والمطر... كلها كانت معلقة في هواء الدار، كأنها طيف لا يريد أن يغيب، ينتظر فقط سمعاً جديداً يأخذها من الغياب إلى الحضور.

مسحت عيناه المكان، لم تكن الدار كبيرة كالتي يتذكرها في طفولته، لكنها احتفظت بالجوهر: صحن مربع مرصوف بحجارة سوداء وبيضاء على شكل زخارف هندسية. في الوسط شجرة ليمون عجوز، تظلل بركة مثمنة الأضلاع، جافة الآن، لكن حجارتها الزرقاء المخضبة ببقع كامدة من رواسب المياه القديمة ما زالت تلمع تحت أشعة الشمس المتسللة من علو. في الطرف الشمالي، ليوان ضخم مخروم السقف بقوس عال متصدع، لكنه أنيق، يرتكز جانباه على عمودين رخاميين نحيلين. على جانبي الصحن غرف مغلقة بأبواب خشبية بهت زخرفها، تكلل نوافذها العليا نقوش تتوزع في أكثر من نموذج، تعلوها إلى ذلك مزاريب حجرية متقدمة بمصباتها. في الزاوية الجنوبية الغربية دغلة ياسمين متشبثة بالحياة، زهراتها المتساقطة تكسو جزءاً من الأرض الحجرية، زهت بأخضرها وتآخت مع دالية صاعدة نحو السطح القبلي للدار. لكن الدمار كان هنا أيضاً. جزء من السقف الخشبي المزخرف في الليوان منهار، تظهر من خلاله عوارض خشبية مكسورة مثل عظام. نوافذ الطابق العلوي، التي كانت يوماً أكشاكاً، محطمة أو مسدودة بألواح خشب رديء. نصف جدار هناك متداع بفتحةٍ أسفلَه تكشف عن دار

خربة في الخلف، جدران مغطاة ببقع رطوبة سوداء. رائحة العفن والتراب القديم تخنق رائحة الياسمين البعيدة.

تقدم طلال في ساحة الدار كالسائر في حلم. لامس حجارة البركة الباردة. تذكر البركة في دار جده في سان باولو، المليئة بماء صناعي أزرق، والسمك الذهبي الذي كان يطفو ميتاً أحياناً. هنا، حتى الجفاف كان أصيلاً. صعد درجة الليوان الحجرية، ونظر إلى القوس الجليل لكن المصدع. الآن لم يكن بحاجة إلى الزحف كما في ذاكرته أيام طفولته الأولى. وقف تحته، رافعاً رأسه، لم يصافح الغيوم، فقط شريطاً ضيقاً من سماء حلب الزرقاء الملوثة بدخان بعيد. لكن في تلك اللحظة، مع ضوء الشمس الساقط من الفتحة في السقف ليضيء وجهه، شعر بشيء غريب. هزة. كأن حجارة الدار، رغم خرابها، تعرفه، كأنها تهمس: "أخيراً عدتَ".

- ما رأيك يا أستاذ طلال؟

سأل الحاج أحمد، معيداً إياه إلى اللحظة والآن، ومتابعاً نظراته بانتباه. فسأل طلال:

- ترى هل للدار إطلالة على القلعة؟

سارع أبو خالد للرد:

- نعم! هي تطل من السطح، هناك سطح المربعات يريك القلعة متوجة كملكة..

أمّن الحاج أحمد على كلمات العجوز، ثم همس في أذن طلال:

- صحيح! من السطح ستسهر مع القلعة يا سيدي.. وتسمع حكاياتها الطويلة..

لم يقل طلال نعم أو لا. أحس في تلك اللحظات أن الدار كانت جرحاً مفتوحاً، لكنها كانت هنا.. في قلب حلب. في قلب الجلوم. حقيقة صريحة، قريبة من القلعة، وقريبة من الذكريات.. تنفس بعمق.

- أبو خالد، من المالك الآن؟

سأل طلال.

أبو خالد تبادل نظرة سريعة مع الحاج أحمد.

- "يا سيدي... أنا هنا لاجئ.. الدار... فيها ورثة كثر كما فهمت. المالك بيت الوزان، لكن من المستفيد من الميراث لا أدري! شأنها صار شأن كثير من الأبنية التي هجرها الزمن وتفرق أو ابتعد ورثتها، ومستنداتها قديمة وضائعة، وجاءت الحرب فزادت الطين بلة، ولا أعلم إن كان لها أصول لازالت موجودة في الطابو.. لا أدري ماذا أقول! حكايتها حكاية. وبصراحة...

نظر حوله في الخراب وأشار بكفيه..

- تحتاج إلى صرف أموال طائلة، يعني لا مجرد تخليص ملكية، هي بحاجة إلى مصاري كثيرة.. لا أظن أن أحداً قادر على مثل هذه الورطة.

فهم الحاج أحمد مباشرة فحوى هذا الكلام من العجوز الساكن في الدار بلا ثمن ولا أجر..

- أنا لست أي أحد!

قال طلال بهدوء يحمل ثقلاً.

- أنا ابن حلب الغايب، وابن الوزان وأحد الورثة.. وقد قلت لك يا حاج أحمد، لا يهم التكلفة. والأوراق؟ سندبرها. والخراب؟ سأعيد بناءه حجراً حجراً..

نظر الحاج أحمد إليه كأنه يرى شبحاً.

- كما تريد، وإن شئت لا يمنع أن نبحث عن غيرها، تكون جاهزة، نذهب إلى أحياء أخرى، في الجُدَيدة مثلاً.

- لا! لا! هنا جيد، لن أترك بيت جدي لأبحث عن غيره.

أجاب طلال ببساطة، ناظراً إلى شجرة الليمون العجوز.

- وهذه!

أشار إلى الشجرة.

- تنتظر أحداً يسقيها..

خرجا من الدار، لكن شيئاً حاسماً حدث.. طلال شعر بغيمة الحنين التي أحاطت به منذ وصوله، تبدأ تتحول إلى قرار. قرار مجنون ربما، في قلب العاصفة، ووجهاً لوجه مع الفقد والدمار، لكنه كان القرار الوحيد الذي جعله يشعر بأنه لم يعد غريباً للحظة.

في طريق العودة إلى الفندق، مرا بجانب بناء شاهق حديث، نصفه مدمر. على حطام واجهته الزجاجية، كان هناك إعلان كبير، مخروم بالرصاص، يظهر شاباً مبتسماً يحمل هاتفاً حديثاً، كُتب عليه بخط بارز: "المستقبل بين يديك". نظر طلال إلى الإعلان، ثم إلى الأطفال الذين يلعبون بكرة بالية بين الركام أسفله، ملابسهم رثة، لكن ضحكاتهم مرتفعة وصادقة. تناقض مأساوي آخر. المستقبل؟! أي مستقبل؟! المستقبل الذي يباع عبر الشاشات، أم الذي يلعبه هؤلاء الأطفال على أنقاض الحاضر؟

- أعجبك الإعلان؟!

سأل الحاج أحمد، كأنه قرأ أفكاره، وأضاف:

- من زمان ما عاد في أي إعلان جديد. هذا قديم.. من قبل الدمار. صمد لسبب ما..
- مثل شجرة الليمون.

قال طلال.

الحاج أحمد التفت إليه بسرعة، عيناه تلمعان بفهم مفاجئ.

- بالضبط يا أستاذ طلال. بالضبط. في حلب، لا تموت كل الأشياء. حتى في الركام، في حياة. وبعض الأشياء القديمة تصمد لأنها قوية، مثل حجارتها.

أومأ نحو القلعة البعيدة التي بدأت تلوح في الأفق.

- وانظر هنا!

قالها الحاج أحمد وهو يشير إلى امرأة شاحبة الوجه تضع طفليها النائمين في عربة خشبية بالية.

- أين زوجك؟

سألها طلال. رفعت المرأة يدها المرتعشة وأشارت نحو كومة من الأنقاض:

- هناك، تحت الحجارة. ينتظرنا منذ ثلاث سنوات..

في عينيها نظرةٌ مطفأة كانت تقول: "لقد تعلمنا أن الموتى أكثر صبراً من الأحياء".

[6]

وجد طلال في البيت العربي القديم، بيت الجد الذي عثر عليه بين خرابات حي الجلوم، الحضن الرحيم الذي احتضنه، وأيقن وهو ينغمس في حلم طاغ أن الزمن لا يزول كما نظن، ولا ينقضي كما نعتقد، إنه دائم الدوران في فلكنا، يلازمنا كظلنا، يلتصق بنا كأسمائنا، ففي الوقت الذي نظن أنه ابتعد، يفاجئنا بالحضور، إنه هناك يعيش في الركن، وداخل أحجار عرفناها، في أصوات سمعناها، بل حتى في نبرات أليفة مستعادة، تنهض من عتم سحيق، من رائحة زمن قديم، تبقى معلقة بالفراغ، ليظل الزمن فينا ماضياً دائم الحضور، يربت على ظهورنا، يمد أذرعه ويقودنا، ونحن نمشي أمامه طائعين، قد نقول هذا خيارنا، فقط لنشيع أننا أحرار.

... ومن أعماق الحلم تنداح التفاصيل، تفاصيل تحسها هاربة من الماضي وساكنة في داخلك، لا أنت تريد إخراجها منك ولا هي تريد أن تغادرك. حتى الأشياء البسيطة التي تظنها لا تعني الكثير، تحتل زاوية من روحك وتهجع هناك، ساكنة أليفة مكتنزة بالوفاء، فقط تذكرك بحضورها الغائب وهي تقول: أنا جرن الحجر وسقاطة الباب والخابية وهاون النحاس وطاسة الحمام والقمقم والمكحلة... وكلها جمادات لا تستطيع أنت محاورتها ومداورتها، لكنك تستطيع أن تسمع همس الماضي من خلالها..

وهكذا شعر طلال براحة عجيبة، واطمأنت روحه في أحضان فسحة شفيفة وارفة من الماضي، وقد حرك شغفه الآن معرفته أن هذا الحي كان نواةً لانصهار الثقافات، حيث تختلط حجارة البيوت العثمانية وخشبها بعطر الورد والعود، وبأنغام الموشحات والأدوار، حتى ليمكن وصف جدران الأمكنة هناك بأنها تحمل ذاكرة صوتية، كأنها تخزن همسات المطربين القدامى الذين تدربوا في زواياها، حتى أكشاك الدار لم تكن في حقيقتها مجرد عناصر معمارية، بل (استوديوهات) طبيعية تُصدِر صدىً خاصاً بالألحان. أما أبواب حلب!. فكل باب يمثل بوابةً بين عالمين: داخل السور حيث البيوت العربية

المزخرفة بالنقوش الحجرية والزجاج الملون، وخارجه حيث الأسواق الصاخبة التي تبيع الآلات الموسيقية والسبحات والطيور، وتنضح برائحة البن والبهارات والعطور.

في أيام تالية سيتعرف طلال على أماكن عديدة داخل السور وخارجه، وسيبدو له بيقين أن هناك لازال ثمة حياة كاملة رغم الدمار، راحت تعج بها الساحات والأحياء والجوامع والأسواق.. إنها الروح التي أزهقتها الحرب، وأبقت فيها نفساً مازال يشتَمُّ نسغ الحياة.

عاد طلال إلى غرفته في سميراميس، شعر بألفتها، وبغبطة تحكي صواب ما أقدم عليه اليوم، لم يعد ينظر إلى البهو البائس بالنفور نفسه، كان لديه الآن مشروع، هدف، شيء يربطه بالمكان بشكل ملموس، ليس فقط بالذكريات. "جاء وقت العمل، عمل لا يؤجل." حدّث نفسه.. طلب بالأنترفون المسيو أنطوان:

- مسيو أنطوان؟ معك طلال الوزان. احتاجك في خدمة كبيرة، إذا تكرمت عليَّ.
- تفضل يا أستاذ طلال، تكرم عينك، أنا بانتظارك هنا، تحت أمرك.

جاء الرد سريعاً. نزل طلال من غرفته ليجد المسيو أنطوان بانتظاره مع بسمة عريضة.

- مسيو أنطوان تحياتي، من دون مقدمات.. عثرت اليوم على دار جدي منصور في حي الجلوم، طبعاً كحال كثير من الدور هناك، أصابها ما أصابها، وأريد مساعدتك إذا أمكن.. أريد في الغد مهندساً معمارياً، خبرة في الترميم، خصوصاً في البيوت العربية القديمة، ومقاول بناء ثقة، كما أريد مكتب محاماة قوي، يفهم في أوراق العقارات والميراث في حلب القديمة.. وأن يكونوا كلهم جاهزين غداً صباحاً، لنقل في العاشرة.

مهّد مسيو أنطوان بصمت قصير.. ثم قال:

- أستاذ طلال... الموضوع... كبير. وفي الأوضاع الحالية... أعني خطر، ألا يؤجل بعض الوقت؟ أنت ترى الأمن والحواجز!"

قطع طلال كلامه، بصوت حاسم:

- أعرف الأوضاع. لا أريد التأجيل، لهذا أريد أناساً عندهم قلب كبير مثل ما عندهم خبرة. الناس التي تحب حلب بقدر حبي أنا. الناس الذين يعرفون أن إعادة بناء حجر قديم هو في حقيقة الأمر إعادة بناء روح. هدفي ليس داراً، هدفي ذاكرة، هدفي جذور. هل لديك هكذا ناس؟!

تنهد مسيو أنطوان..

- بصراحة؟ صعب. لكن... في.. في ناس ما هاجروا. ناس أرباب مهن لا تموت، سأحاول البحث عنهم، عليك بالصبر قليلاً..
- أنا في الانتظار.. مع كل الشكر.

الشمس بدأت تميل نحو الغروب، تلون سماء حلب الغائمة بلون خمري، يذكّر بلون أرائك البهو الباهتة. تذكر طلال شيئاً ظل يؤجله في كل مرة، شيئاً عاد إلى حلب كما عاد هو، سنوات طويلة بقي هناك هاجعاً في غربته، سنون ثقيلة انطوت، وآن له الآن أن يرى وجه حلب على الأقل.. امتدت يد طلال إلى حقيبة صغيرة، فتحها وأخرج صرة قماش حريري أزرق، حلَّ أطرافها ليظهر داخلها ميزان نحاسي صغير، وعلى جانبه نقش بالعربية: "العدل أساس الملك. منصور الوزان." ميزان جده الأكبر، "وزان الذهب". حمله بين إصبعيه من خطاف في المستقيم أعلاه، شعر ببرودة المعدن وثقله الرمزي. وقف أمام المرآة في الغرفة. رأى نفسه: رجل في الستينيات من عمره، وجهه يحمل سمرة أمريكا اللاتينية وعيناه عميقتان تحملان حزن الشرق وحكمة التاجر الناجح. لكن في عينيه الآن، شرارة لم تكن موجودة في البرازيل، شرارة تتوهج بالثقة والتحدي. نظر للانعكاس في المرآة، وردد في داخله وكأنه يخاطب روح الجد الذي لم يعد إلى حلب أبداً: "رأيت الدار، يا جدّي، ظلت تحمل اسمك، وهي خراب. لكنها صامدة. مثل الميزان." رفع الميزان الصغير نحو بقايا الضوء الآتي من النافذة: "سنعيد الوزن. سنعيد التوازن. بدأنا."

في الخارج، دوى صوت انفجار بعيد، ثم عاد صمت المدينة الثقيل. طلال لم يرفع رأسه هذه المرة، كان يحدق في الميزان، وكأنه يزن في كفته بقايا الماضي الحالم، وفي الأخرى واقع الحاضر المدمر، وإرادة المستقبل الذي قرر أن يصنعه بيديه، حجراً حجراً، وسط الركام، ورغم الخطر. قرَّ في روحه همسٌ يقول: إن الغريب الذي عاد، وجد أخيراً سبباً ليبقى. والرحلة الحقيقية، رحلة وجود وبحث مرصود في إعادة بناء وسط دمار، كانت قد بدأت للتو.

الليل يخيم على حلب، لكن في غرفة منفردة، في فندق سميراميس، الشاغر معظمه، كان هناك نور صغير جداً، ينبعث من عيني رجل، ومن ميزان نحاسي صغير بمثابة أنتيكا، تتعادل كفتاه تحت إصبعه، ووعد بإعادة وزن العالم، عالمه الصغير على الأقل.

[7]

في صباح اليوم التالي، كان ضوء الشمس يتسلل عبر الستائر المسدلة، طلال كان مستيقظاً منذ أول الفجر، راح يفكر في العراقيل التي ستواجه مهمة حصر الإرث فيما يخص دار المنصورية، ومن ثم أعمال الترميم وكيف ستجري! توصل إلى أن المال كفيل بحل أي معضلة، وهو سيبذله رخيصاً في تحقيق حلم طالما راوده، هو نفسه حلم الجد منصور الذي سعى إليه عبر أمنيات طواها الزمن.. نهض وخرج إلى الشرفة يشاهد المدينة وهي تتنفس بصعوبة من أثر قتام يشيع في الفضاء، الرائحة المميزة لخبز الفرن البلدي تتصاعد من زقاق ضيق خلف سميراميس، تختلط برائحة التراب الرطب بعد ليلة ماطرة. تنفس بعمق، كأنه يحاول اختزان كل هذا الهواء في رئتيه قبل أن يضيع. "حقاً!. لماذا عدتُ؟" سأل نفسه السؤال ذاته، ثم تاه عنه بسماع أصوات متفرقة تمزق سكون الصباح، راحت تصل إليه: بائع متجول يصرخ بأعلى صوته على الكعك والسحلب، طفل يبكي، محرك دراجة نارية يعاني من عطل ما.. كل شيء هنا يحمل نبرة الحنين والوجع، وأسئلة حائرة دونها آت غامض.

دُقَّ الباب، كان مسيو أنطوان يقف خارجه، يرافقه رجل في الخمسينيات من عمره، بدا رزيناً كصاحب مهنة لها اعتبارها، وهو يصافح طلالاً بنظرة مسددة إلى عينيه..

- أستاذ طلال، يسعد صباحك.. هذا المهندس نبيل العظم، خبير في ترميم الآثار والبيوت العربية..

شد طلال على يده، وبادر بالقول:

- أنا سعيد بلقائك. أعتقد أن مسيو أنطوان قد أوضح لك ما أريده.

عرف المهندس المطلوب سريعاً بحرفية لافتة، وطلب مهلة بحث وتحقق...

المسيو أنطوان ذكّر طلالاً:

- لنا موعد آخر مع الأستاذة المحامية سلاف، ستأتي الآن وستوقع لها توكيلاً عاماً لإجراء ما يلزم من معاملات وموافقات..

وفعلاً.. بعد دقائق ظهرت في البهو المحامية سلاف الدالي، شابة في أواخر العشرينيات، بمسحة جمال بدأ يخبو، رحب المسيو أنطوان بقدومها، وأشار إلى طلال معرفاً، فتأملته لحظة، ثم لفظت اسمها بحروف جادة، واستمعت بانتباه إلى ترحيب السيد طلال وكلماته الموجزة وخططه العملية.. كانت تصغي، لكن شيئاً ما جعل طلالاً يتوقف عند قسمات الحزن في وجهها، ويتساءل عن سر دفين يجعل ملامح شابة تنضح بكل هذا الأسى.. عرفت الأستاذة سلاف مهمتها، ووعدت أن تحرر في الغد عقدين يحتاجان إلى تواقيع وتثبيت في كاتب العدل: الأول عقد إشراف باسم المهندس نبيل العظم، والثاني عقد توكيل لها من أجل معاملة حصر الإرث بخصوص المنصورية.

بعد أيام كان المهندس نبيل في بهو الفندق بانتظار نزول طلال، لإطلاعه على ما توصل إليه. وبمجرد رؤيته انبرى يقول بلا مقدمات، كأي إنسان عملي:

- نعم، سيد طلال. دعني أكون صريحاً معك... الدار التي تتحدث عنها، دار آل الوزان في حي الجلوم، أنا سمعت بها، وهي معروفة في الحي باسم المنصورية، أليس كذلك؟ كشفت على سجلها ومواصفاتها في الطابو بالأمس، ولا بأس أن نراها اليوم على أرض الواقع.
- لا بأس، لنذهب..

استقلا سيارة المهندس نبيل في الطريق إلى حي الجلوم، مضى نبيل صعوداً باتجاه دوار السبع بحرات، ثم انعطف يميناً، فانكشف لنظرهما فجأة سور الجامع الأموي المهدم يندب مئذنته التي توارت في الركام، مخلفة فراغاً وحسرة.

علق طلال كاسراً حدة الصمت:

- أريد أن أفهم! من له مصلحة في نسف عروس مآذن حلب؟!

وأطلق زفرة أسى.. ظل نبيل صامتاً، كما لو أن أي كلام أقل بكثير مما يمكن أن يقال، أو أن مناظر الخراب المعتادة في المدينة جعلت أي كلمة تقال تعد نافلة.. نظر طلال إليه يقرأ صمته، فسارع نبيل بأن رفع كفه عن المقود وأداره بحركة تنم عن حيرة وعجز.. بينما انعطفت السيارة صاعدة نحو منطقة تبدو أقل تضرراً، قريبة من ظل القلعة.. عندما وصلا إلى الحارة، كان الحاج أحمد ينتظر عند باب المنصورية، بجانبه العجوز أبو خالد، الذي بدا اليوم أكثر هشاشة، فبادرهم..

- تفضلوا، الدار كما ترون..

دخل المهندس نبيل إلى الدار، وأدار بصره في مختلف الأرجاء بنظرات شاملة، شغله منظر الهيكل المتآكل للدار، تفحص أماكن بعينها، أخذ يلمس حجارة الجدران باحتراف، ملاحقاً بإصبعه شقوق التصدع.. تابعه طلال بعينين متسائلتين، منتظراً كلمات مفيدة.. التفت إليه المهندس نبيل وتأمله ثم قال:

- الخلاصة يا سيدي.. الدار هذه من البيوت النادرة التي ما زالت تحتفظ ببعض تفاصيلها العثمانية، لحقها دمار كبير، وهي _ لنكن بالصورة _ تحتاج إلى أكثر من ترميم... تحتاج في بعض أماكنها إلى إعادة بناء كاملة، و.. يلزمها وقت..
- الوقت ليس مشكلة، المهم أن نبدأ من الآن..
- جميل.. في أيام قليلة ستكون الورشة جاهزة..

اتفقا سريعاً على التفاصيل الضرورية، فضلا أن يحررا عقداً لدى الأستاذة سلاف في الغد.. عاد المهندس نبيل فانشغل بالنظر إلى البركة وأبعادها، ثم تفحص الحجر الذي يكسو صحن الدار، وما لحقه من تحدبات بفعل جذور الأشجار، ونظر تحديداً إلى شجرة الليمون كمسؤولة عما لحق الأرض من تخلخل، أما طلال فكان ينظر إلى شجرة

الليمون العجوز نظرة أخرى، بحيث بدا كما لو أنه طفل يجلس أمام جدة ويستمع إلى حكاياتها.

[8]

لم يكن صباح اليوم التالي كسابقه. لم يعد طلال غارقاً في الحنين السلبي، بل كان قلبه يخفق بترقب.. في الفندق طلب من مسيو أنطوان إحضار مهندس استشاري متخصص، رغبة منه في المطابقة بين رأيين.. وفي غضون ساعات وصل المهندس المعماري معتز سروجي الذي يبدو كهلاً رصيناً.. كانت مصافحته قوية:

- تحياتي سيد طلال.

ابتسم ابتسامة خفيفة لا تصل إلى عينيه الحادتين.

- حدثني مسيو أنطوان عن مشروعك... المجنون!
- إذا كان في البناء جنون.. أجل!

رد طلال.

لم يضيعا وقتاً، في الحال توجها إلى دار الجلوم، دخل معتز الدار بتهيب يتلفت، ثم سار في الصحن بخطى بطيئة، يلمس الجدران بخشونة الخبير، يقرأ الحجارة كما تقرأ الكتب، توقف عند الليوان، نظر إلى السقف المنهار، ثم نزل على ركبتيه، يتحسس حجارة القاعدة.

- هنا... هنا جريان المياه القديم..

أشار بإصبعين إلى خط أسود متعرج على الحجر.

- البركة لم تكن جافة دائماً. نظام صرف معقد تحت الأرض، مرتبط بقناة رئيسية كانت تجري يوماً تحت الحي آتية من حيلان..

والتفت بالتزامن مع هذا القول يشير إلى الجب القائم هناك ملاصقاً باب المطبخ، ثم نهض، غبار الحجر على بنطاله..

- طبعاً هذا كان منذ سنوات.. إصلاحه مستحيل، لأن شبكة المياه القديمة دفنت أو دمرت.

طلال شعر بوخزة إحباط.

- إذن؟
- إذن نبتكر.

قال معتز ببساطة، وكأنه يتحدث عن تغيير لمبة.

- نصنع بركة جديدة، لكن روحها قديمة، بمواد حديثة تمنع التسرب، لكن بذات الشكل والملمس. التحدي ليس في تقليد القديم، بل في إحياء روحه بوسائل تسمح له بالاستمرار.

ونظر إلى شجرة الليمون..

- وهذه السيدة العجوز... جذورها قد تكون ممتدة تحت أساسات الغرف. سنحتاج إلى حفر استكشافي بحذر، كي لا نقتلها أثناء تقوية الأساسات. هي شاهد، ويجب أن تبقى.

بعد قليل لحق بهم المقاول أبو إلياس، دخل مسلماً بصوته الخشن وقامته المديدة. نظر إلى الخراب وسأل معتز عن المطلوب، ثم توجه إلى السيد طلال:

- والله عمل جليل يا أستاذ! لكن يلزمنا رجال، ومواد وأمن... والأصعب الأمن. الشاحنات يتم توقيفها على الحواجز، المواد المحملة تنهب، الأتاوات كبيرة، والعمال مهددون بمصادرة عدتهم بحجة عدم وجود تصريح.. بالطبع أنت تعلم هنا في هذا الوطن في ناس لا تحب أن ترى حجراً يركب على حجر، أو حجارة تنهض من الموت وتحيا من جديد! إذا كانت براميلهم قد أتت على أعز ما تحيا به حلب، فكيف يعنيهم أمر البناء؟!

نظر طلال إلى كلمات المقاول بحذر، ورد بالقول:

- لا عليك! المهم أن نبدأ، سترى أن عائقاً لن يقف في وجهنا..

وأخرج رزمة من المال عربون البدء.. وتابع:

- الرجال؟ أريد عمالاً تثق بهم. المواد؟ اشتر من أي مصدر، ولو من تحت الأرض، المهم أن تكون أصلية. الأمن..

توقف لحظة، نظرة ثابتة في عينيه.

- .. يعني إذا كنا سنعمل في وضح النهار، ممَ نخاف؟! أصلاً نحن سنقوم بأي ترميم بموجب رخص معتمدة من جهات البلدية والمحافظة والآثار، وهذه مهمة المهندس نبيل..

[9]

في الأيام التالية غادر طلال سميراميس وانتقل إلى المنصورية، ليكون بين العمال.. بعد أن جهز له أبو خالد غرفة على يمين الليوان مقابل غرفته.. دخلها طلال وفوجئ على الطاولة بكتاب من سبعة أجزاء بعنوان (موسوعة حلب المقارنة) لخير الدين الأسدي. ممهورة بإهداء لطيف خطّه أبو خالد بأناقة. وجدها طلال تحفة نادرة، وراح يقلب في صفحاتها مستمتعاً بنشوة ضافية، منقباً عن كلمات من موروث حلب طالما شغلته.. شكر العجوز بامتنان، واستغرق الاثنان في أخبار علاّمة حلب وشعره وموسوعته..

سينهض طلال في صباح تال مع فكرة تدور في الرأس: الرحلة إلى الماضي لم تنتهِ، بل إنها تبدأ للتو، حجراً حجراً، ولغزاً لغزاً، في مدينة ترفض أن تموت، وفي دار بدأت تتنفس من جديد. سيمشي وحيداً وسط الحارات في جوار حي الجلوم، سيتعلق بصره بالطريق المفضي إلى جنينة الفريق، فيما ستقفز إلى ذاكرته مدرسة "حليمة السعدية"، مدرسته التي أمضى فيها السنوات الأولى من دراسته الابتدائية، وهناك ستنفتح لعينيَه التائهتين مساحات خربة واسعة في قلب الأزقة امتلأت بالركام، أكداس من الأحجار اصطفت على طرفي الزقاق، أشلاء بيوت وبقايا جدران. في تلك اللحظات سيتمنى من أعماق روحه أن لا يكون الدمار قد أتى على مدرسته الابتدائية.. هناك..

مد قدمه في الزقاق الطويل، وفي الحال وصلته أصوات الضجيج، عرف أنهم التلاميذ وقت الاصطفاف، عَبَرَ حذراً الباب الواطئ، وامتلأت عيناه بالضوء المندفع من آخر الدهليز، فيما اشتدت أصوات الصغار في أذنيه..

من خلفه وصله صوت:

- تفضل.. ماذا تريد؟ التفت إلى سيدة صارمة..
- لا.. عفواً أنا فقط أريد.. حضرتك المديرة؟
- نعم.. المطلوب؟

- عفواً.. لا شيء.. هذه كانت مدرستي في الثاني الابتدائي.. أيام زمان.. أريد فقط أن ألقي نظرة.. إذا سمحتِ..

أعطته كتفها والتفتت إلى التلاميذ وقد شرعوا ينتظمون صفوفاً في الباحة.. بدت له المدرسة شبح ذكرى، لم تعد كما عرفها، صحيح أنها لم تصب بأذى كبير، لكن مظاهر الدمار بانت في الشبابيك المخلعة والجدران المصدعة والمثقبة بالشظايا والرصاص، وثمة في شرق الباحة حائط خرب رمم بأحجار هجينة، تعلقت عيناه بدرج صفه.. وجده قصيراً وضئيلاً.. درجاته صغيرة ومتآكلة، توشحت بصدأ السياج.. نوافذ الصف مفتحة وقريبة.. رفع قامته ينظر، شاهد أعلى خزاناته الخشبية، وبدا سقفه قريباً، يكسوه الأزرق الباهت.. جالت عيناه في الباحة.. هل كانت صغيرة حقاً هكذا؟! ثمة شجرة كباد كانت هنا وأزيلت، قريباً منها كانت عريشة ياسمين.. في مكانها الآن بقايا أحجار مكدسة من الجدار المهدم.. أطلقت معلمة الباحة شعارات البعث، رددها الصبية والبنات، لم يكن ثمة بنات بينهم.. رمقته بعض المعلمات، اقتربت إحداهن.. أشاح بوجهه إلى درج الصف، دفعته رغبة في الصعود إلى هناك..

- عمو.. مراجعة بشأن طالب؟!
- لا عمو.. أنا أنظر ما حصل للمدرسة!

تطلعت في عينيه مستفهمة..

- كنت في ذلك الصف.. هناك _ أشار بيده _ منذ ستين عاماً!

المعلمة رفعت حاجبيها ثم استدارت إلى الأخريات.. حدثتهن.. رسمن ابتسامات تعجب، توجهن بنظرات دهشة نحوه، حدث نفسه: لا يهم! استغرق في خيالاته.. في تلك اللحظات كان ينتظر خروج الأستاذ توفيق من غرفة الإدارة، يتأمل طربوشه المائل وبذلته الأنيقة، ربطة العنق، السلسلة الفضية المدلاة من جيب الساعة، رباطة الصباط الأسود اللماع.. بسرعة تنتظم الصفوف في الباحة، يستمر هو بالنظر من خلف نقرة أحمد إلى المدير

والمعلمين خلفه، وأمامهم من جهة اليمين الياسمينة، هناك حيث الأريج المندغم بعطر المعلمين، بالتماعهم، باللهفة والخوف.. الآذن أبو محفوظ يطل من الكوة ويدفع المتجمعين أمامها ليلتحقوا بصفوفهم.. اصطفوا الآن.. ويُسمع عالياً صوت اصطفاق الكوة، كوة البيع.. حركة وضجيج في المربع العلوي.. اندلع الهتاف في أركان المدرسة جميعاً.. (قسماً بالنازلات الماحقات، والجبال الراسيات الشاهقات). رمقته معلمة من شباكها.. (قد عقدنا العزم أن تحيا الجزائر، فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدووا..). معلمات أخريات يرمقنه من صفوفهن، تلاميذ وتلميذات يشرئبون برؤوسهم نحوه.. اندفع طلاب شعبتيّ السادس مهرولين على الدرج، خرجت جميع الصفوف الأخرى إلى الباحة.. انحشر الصبية في دهليز الخروج، تتالت الطرقات على باب المدرسة.. (أمة الشباب، تكسر الأبواب..). نظر أبو محفوظ صوب المدير، حرك المدير رأسه، وصلت الإشارة، شق أبو محفوظ طريقه بين الصبية بحماس، فتح باب المدرسة على مصراعيه، علا الهتاف من جديد (قسماً بالنازلات الماحقات..). انطلق الطلاب في الحارة الضيقة.. اختلطوا بلحظات بطلاب مدرسة الزهراوي الذين كادوا أن (يكسروا الأبواب)، من سوق القطن هناك وصلت جموع مدرسة العرفان، ثم ظهرت رؤوس أخرى بالمئات.. (ويا ألوف سيري سيري.. ويا بشاير طيري طيري..)

- عمو بتريد شي؟!

الآذنة تسأله..

- لا عمو.. هذه كانت مدرستي!

نظرت المرأة إلى كله وتعجبت.. عادت الهتافات تصم الآذان.. لفته قبو العلوم هناك في زاوية الباحة.. هل المحنطات موجودة لا زالت؟! الثعلب والأفعوان يتصارعان، فراشات ملونة كانت مثبتة هناك على صفائح كرتونية، مجسم تشريحي لإنسان، كم نظرت إلى عينيه! الآذنة تنظر في عينيه..

- هل تريد المديرة؟

سألها دون أن يعبأ بسؤالها:

- هل القبو هناك بقي مخبراً للعلوم؟
- لأ.. هناك براميل المازوت ونشح المدارس. هل تريد المديرة؟
- لا.. شاهدتها منذ قليل.
- تفضل..

مدت يدها بكأس شاي.. تناولها..

- شكراً.. تسلمي يا أم.. أم إيش حضرتك؟
- أنا أم سعيد، زوجي..

نظر إلى غرفتها تحت الدرج، بحثت عيناه عن الحجي أبو محفوظ، كانت الغرفة بسقفها الواطئ أشبه بدكان صغيرة، تعج بمأكولات الصغار..

- هناك صفان خربان في الأعلى، نقلنا أحجارهما كما ترى.. هذه الكومة هناك.. برميل سقط في الحارة الخلفية، وانخربت الستارة على السطح.. أما الحائط..

تأمل قوس الليوان المصدَع من أعلاه.. العازفون الكشافة الصغار يصطفون خلف الأستاذ فريد حسن، الأستاذ فريد يسترسل في الدندنة على العود، تنتهي المعزوفة ويعلو التصفيق والصفير..

- عمو المدرسة لا تشوفها بهذا المنظر الآن.. عندما تسلمناها كانت أشبه بالخرابة، وجاؤوا من التربية، مدير التربية نفسه..

علا الصفير يطالب الأستاذ فريد باستمرار العزف، ابتسم ودخل مع الفرقة وراءه بموشح "لما بدا يتثنى.."

- والصف القبلي وقع حائطه على الحارة الخلفية، والحارة..

وصل بكاء أحمد إلى سمعه وهو يتوسل أن يعفى من الفلقة، بينما كان يخلع جواربه المثقبة الواحد تلو الآخر وسط الفزع المكبوت..

- سقف الليوان سقط خشبه، ما تراه هذا صبة باطون، هو سقط من قبل..

دارت عيناه في باحة المدرسة، تأمل الظل وضوء الشمس اللذين كانا يقسمان الباحة إلى نصفين.. انتشلته شكوى أم سعيد:

- إيش أحكي.. عندي الصغير راح بالقصف، كان يرضع على إيدي، وزوجي مختف، ما في خبر عنه، وابني الله يخلي ولادك عسكري من سبع سنين، وفي البيت الله لا يرويك قطع لحم.. في شي لله؟ يعني.. اللي بيطلع من خاطرك.

دفع إليها ببعض المال وشيعته حتى الباب تدعو له بالستر والرزق وحياة الأولاد.. خرج طلال هائماً وقد اختلطت في رأسه صور الماضي بشواهد حاضرة انكسر فيها شيء فبدت كما لو أنها مظلة معطوبة.

[10]

صورة المدرسة بالأمس لم تبارح رأسه، قذفته في دنيا بعيدة، ترجّحَ شاعراً باختلال توازنه بين زمنين.. "ماذا حصل للماضي حتى ينكفئ بهذه الصورة الجارحة؟!" حدّث نفسه في الليل، بينما كانت أضواء كشافات العمل من مولدة تهدر وتنير الدار، مثل شموع عنيدة في عتمة الزمن. وتعلقت عيناه بشجرة الليمون العجوز، في زاوية الصحن، نظر إليها ككائن عصي على الفناء، وهي تمد أغصانها أكثر نحو السماء، مستعدة لاستقبال قطرات الندى، أو ربما لغيمة بيضاء قادمة بعد غياب طويل.

لم تكن الأصوات التي أيقظت طلالاً في الضحى هي انفجارات واشتباكات بالرصاص الحي آتية من غرب المدينة هذه المرة.. بل ضربات مطرقة تتردد في صحن الدار، وهمس نسائي بنبر ساخر من خلف الجدار الحجري الفاصل. خرج من غرفته المؤقتة ليجد المهندسين نبيل ومعتز يتفحصان الزخارف الحجرية التي تكلل النوافذ والأبواب على طرفي الليوان، وعلى جدارن الغرف القبلية، بأشكال هندسية متداخلة، تتناوب ما بين نافذة وأخرى، تختلط فيها زهرة اللوتس بالنجمة السداسية. "انظر .. هذه نجمة داوود.." قال معتز. رد نبيل:" هذا شكل هندسي شائع لا علاقة له بنجمة داوود". "عموماً نحن أمام فن مملوكي متأخر!. تتداخل فيه عناصر عثمانية..". قال معتز بمتعة المُنقب عن كنز. "لكن انظر هنا!." أشار نبيل إلى جدار بنسيج آخر، كمقطع من بناء مستقل، بأحجار ضخمة قديمة ومختلفة، تتخللها مداميك دائرية من البازلت.. "الشكل قديم نادر، يشبه واجهة جامع القيقان، ربما من الزمن الأيوبي. حتى البركة المثمنة، هي من تصاميم العمارة الأيوبية. الدار في كل تفصيل فيها تبدو كبصمات أصابع التاريخ.". وافقه المهندس معتز، بينما انجذب طلال نحو الهمس النسائي الآتي من فتحة كبيرة في الجدار، تقدم خطوات كافية ليرى ساحة داخلية صغيرة في الدار المجاورة، وامرأة في الخمسينيات، بملفح حريري أسود يحيط بوجه صبوح، تجلس على كرسي منخفض، تنقي العدس في صينية نحاس. الصوت الهامس مازال يسترسل بجانبها، توقف شاعراً بالحرج من ظهوره بالمكان، لكنه

ظل مسحوراً يديم النظر إلى وجه شابة عشرينية في الطرف الآخر من الدار، ترتدي فستاناً مطرزاً على قميص قطني بسيط، تحكي وتسقي نباتات النعناع والريحان في أصص فخارية. رفعت المرأة رأسها، وبادرت بصوت جهوري مشجع:

- أهلاً وسهلاً بالجار! أبو خالد أخبرنا بقدومك، نحن جيرانك بيت الجلبي، أنا وداد، وهذه ابنتي ريم.

طلال اقترب أكثر، مبتسماً. تخطى حاجزاً ترابياً يفصل ما بين الدارين.. رائحة النعناع الطازج اختلطت بغبار البناء. وضع كفه على صدره..

- طلال الوزان. وأنا سعيد بجواركم.

الست وداد وضعت الصينية جانباً، وجهها يشي بجمال لافت، بينما راحت عيناها الرماديتان تختبرانه.

- وزان؟ من عيلة خان الصاغة؟ وهذه دار الوزان قديماً، والآن الكل يعرفها باسم المنصورية..
- على اسم جدي الحاج منصور، نعم.
- والنعم ياجار، جدك كان ميزان الذهب، والله أنتم على الراس، سمعة عيار أربعة وعشرين..

وضحكت..

- سمعنا عن نيتك في إعادة الحياة لهذه الخرابة!
- الدار... كانت بحاجة لمن يذكّرها أنها عايشة.
- معك حق، أنت ترى ما لحق بنا من دمار، نحن هنا ظللنا، رفضنا أن نخرج، زوجي الله يرحمه استشهد بجي المعادي، كان في دكانه يشتغل، سقط عليهم

برميل، الضحايا يومها بالعشرات، يا حسرتي! كان يعمل نجار عربي، لم يسبقه أحد في نجارة أكشاك الخشب أيام زمان، أو في ترميمها أواخر أيامه..

ثم نهضت ودخلت إلى غرفة خلفها، فيما ظلت ريم تتابع سقيها لأصص الزرع وترنو إلى وجه طلال الذي بادلها الابتسام والسهوم معاً.. عادت الست وداد تحمل صحن كعك وأقراصاً بعجوة.

- تفضل يا جار.. لعلك تتذكر أيام زمان، شغل بيتوتي..

تناول طلال شاكراً قرصاً، وظل يديم النظر إلى وجه الصبية، فبادرت الست وداد مشيرة إلى ريم:

- وهذه ريم، خريجة تمريض، بس هالزمان صارت خبرتها بمداواة الجروح التي تفوق جروح الناس..

نظر طلال إلى ريم يسأل بعينيه عما قصدته الأم، فبادرت ريم:

- والله يا أستاذ ما خلفته الحرب صار أكبر من أي جرح، بحيث لم يعد ينفع معه ضماد.. أقصد الوحوش البشرية التي قذفوها في وجوهنا، والتي تجول بيننا حتى هنا في الحارات الشعبية..

وافقها طلال بملامح حسرة وهزة من رأسه، وتأمل في وجهها وكلماتها، بهره الجمال الحلبي يشع من عينين براقتين ووجه مشرب بالحمرة على بياض كما اللؤلؤ، حدّث نفسه: هذا جمال ذو جذور تضرب في تراب حلب، ولا عجب أن تمتلكه حفيدة نجّار يصنع الأكشاك لدور حلب..

- عمي هل أتيت زيارة أم للإقامة؟!

سألت ريم باهتمام، رد طلال مشيراً إلى الدار خلفه:

- سأنتظر ماذا ستقول هذه!

فأردفت ريم:

- على كل حال ليس المهم أن تزور حلب، ولا أن تقيم فيها، الأهم في تلك الأيام القاهرة أن تعرف أنقاض حلب حجراً حجراً، وتعرف مَنْ وراء كل هذا الركام من الأسى الذي تكدس في أعماقنا...

في تلك اللحظات هام السيد طلال بكلمات ريم وحضورها، وأدهشته إشارتها الصميمة لما يعتمل في داخله، وما أظهرته من وجع منغمس بالشأن العام، ثم تأكد له ما كان يعتقده دائماً بأن الذهب الحقيقي هو الذاكرة الحيّة، وأضاف إلى اعتقاده أن النساء في الحرب يصبحن خزان الذاكرة الأخير، فهن حاملات مفاتيح البيوت، وصور الموتى، وحكايات لم تُكتب، يحفظنها ويُرضعنها للأطفال كي لا تُسرق.

استدار طلال ليغادر، وقبل أن يتلفظ بتحية وداع، اقتربت الست وداد من فتحة الجدار حيث يقف، وأرسلت نظرة إلى الحطام المتناثر خلفه وقالت:

- دار المنصورية هذه... كان يسكنها جارة لنا، ستنا فضيلة، ماتت رحمها الله منذ سنوات، قبل الأحداث.. حكت لنا أن أهلها وأقاربها سافروا من زمان، من زمان طويل، ولم يعد أحد يعرف عنهم شيئاً!

طلال شعر بوخز في قلبه، وفكر من عساها تكون الست فضيلة تلك؟! إذاً الذاكرة لم تكن حجراً فقط، بل لحماً ودماً. لم يعرف بماذا يجيب، لم يسبق أن حدثه أحد عن الست فضيلة، وشعر بالخجل من جهله.. لكنه بادر بالقول:

- لا أعرف من تكون! فأنا غادرت حلب من زمان طويل..

لكن ريم أسعفت الموقف وهي تقترب حاملة كوب شاي..

- تفضل يا عم طلال. ونصيحة؟ لا تسمع كلام المهندس كله..

أشارت بذكاء إلى معتز.

- هناك في الزاوية الشرقية، تحت البلاط الحجري، كان في بير ماء جوفية صغيرة. ستنا فضيلة كانت تحكي أن الجيران كلهم كانوا يستفيدون منها منذ أيام (السفر برلك) وإلى عهد قريب.. أظن أنها لازالت موجودة..

معتز القريب انتبه إلى الحديث وأبدى اندهاشه.

- بير؟! قمنا بمسح كامل للدار.. توجد بير حيلان هناك، وأظن لا توجد أخرى.

فقال طلال موجهاً كلامه إلى ريم:

- فعلاً نبيل ومعتز لم يذكرا لي شيئاً عن البير هناك!

ريم ابتسمت، خجلٌ يخفي فطنة:

- الستات القديمات هن المرجع يا جار، واسأل أمي إذا أردت، صحيح أنهن لا يكتبن وثائق، لكن ذاكرتهن أطول من سور القلعة. جرب أن تحفر هناك.

رسمت بأصبعها مكاناً محدداً بظل دالية متسلقة على عريشة.. استنفر معتز عماله، بعد ساعات، وبينما كانت المعاول تنقب حيث أشارت ريم، ظهرت بالفعل قناة ماء قديمة مسدودة جزئياً، لكن حجارتها ما زالت سليمة. الماء العكر بدأ يتسرب ببطء.

- وحياة العدرا .. الجارة الصبية كلامها ذهب!

صرخ المقاول أبو إلياس، والعمّال يصفقون.

طار طلال من الفرح ولم يدر أيعجب بذكائها أم باكتشافها!

أرادت ريم أن تكشف عن مأثرة أخرى، فخطت - يدفعها الزهو- إلى داخل المنصورية خطوات جادة، متجهة نحو السلاملك، ووقفت عند حجر منقوش في أعلى القوس المفضي إلى الحرملك، وأخذت تهجي كتابة شبه غائبة، وبصعوبة قرأت:

(بُني هذا البيت على التقوى سنة ١٢١٥ هجرية) ارتفع صوتها بالعبارة، مفتخرة باكتشافها:

- انظروا ما كُتب هنا.

خطا طلال نحوها وأخذ يمعن النظر في العبارة بدهشة لا يخفيها، تجمع من في الدار يفك الحروف ويتأكد، التفتت ريم إلى العجوز وهو يديم النظر في العبارة، وسألته إن كانت الدار بنيت حقيقة قبل أكثر من مئتي عام، أجاب أبو خالد:

- عادي جداً هناك دور تعود لزمن أقدم بكثير، لكن السؤال الأهم: هل تفنى هذه الأبنية؟! نعم! قذيفة غادرة تمحو وجوداً في لحظات.. ترى كم من الجهود، من الإرادة، من الزمن سيلزم حتى تُبعثَ الروح في هذه الأحجار من جديد؟!

كان أبو خالد الستيني، مدرس اللغة العربية المتقاعد، قد فقد منزله وابنته وزوجته في غارة وحشية شُنت على حي قاضي عسكر.. شهد دفن أشلائهما، أهال التراب عليهما، وظل منكفئاً على القبر يقرأ القرآن ويبكي، أحرق قلبه الفقد، وتمنى أن يكون مكانهما.. في اليوم التالي لمَّ ما استطاع من بقايا البيت المنهار، وجر شيخوخته والفجيعة قاصداً دار قريبته الست وداد في حي الجلوم، بملابسه التي عليه، هناك وجد الرأفة واللقمة، وعصراً نادته إلى ساحة الدار، وأشارت إلى الفتحة القائمة في الجدار الغربي، والتي تطل على الدار المجاورة، قائلة:

- هذه دار مهجورة يا أبو خالد، بيننا وبينها فتحة، فيها خراب لكن يمكن أن تجد فيها غرفة صالحة للسكن وتصبح جارنا.

فهم أبو خالد القصد، فالست وداد تعيش هي وابنتها وحيدتين، ووجود رجل في الدار لا يبدو لائقاً ومقبولاً. وفي الحال تم تجهيز الغرفة اليسرى في الليوان، واستقل أبو خالد بها، بعد أن حمل إليها بقايا أمتعته وبعض الكتب..

[11]

في صباح اليوم التالي، بينما كانت وداد منهمكة في تمليح مؤونتها من الفستق الحلبي، وفرشها تحت شمس الظهيرة، خرج طلال من غرفته في الليوان يحمل في قبضة يده شيئاً غامضاً التمع طرفه، اقترب من فتحة الجدار، خشي أن تنتبه المرأة إليه متلبساً بشبهة التلصص، ففعل في الحال ما نوى أن يفعله، شيء ما دفعه ليري الست وداد ميزان الذهب الذي ورثه عن جده منصور، أفلت كفتيه وقرعهما ببعضهما، فانتبهت الست وداد واستدارت وأشرق وجهها بابتسامة، أزهى من أي ترحيب، ومن خلفها ظهرت ريم مشرئبة كغزالة، بينما رفع طلال الميزان أمامهما، وبدا كما لو أنه يتحدث إليهما بشيفرة بصرية فحسب.. لكن الدهشة التي استقرت في العيون جعلته يقول:

- هذا ما بقي من أثر جدي منصور، والاستواء بين الكفتين حياة الأرواح.

أبدت المرأتان انبهاراً بجمال الأنتيكا النحاسية بكفتيها اللتين راحتا تتناوبان صعوداً وهبوطاً وتتبادلان انعكاس خيوط الضوء في لحظة من الإعجاب والدهشة، وأمنت الست وداد على كلمات السيد طلال بابتسامة مشرقة، في حين تعلقت عينا ريم بمشهد طلال وميزانه المرفوع، ثم اقتربت منه ومدت كفها تتلمس المعدن النحاسي الأصفر.. ومن خلفه شهد أبو خالد ما يشبه عرضاً فنياً مكتنز الدلالة وهو يلاحق حركة الميزان وانعكاس بريقه المتناوب.. في حين كانت رائحة الفستق المملح المشمس تضوع في الفضاء، وتختلط برائحة الغبار والياسمين. واستدارت الست وداد إلى الفستق المفروش خلفها، وانحنت تقلب الحبات المستلقية في شمس آب بحركات بطيئة من كفها كطقوس قديمة، بينما اقترب طلال وجلس قربها يشم الرائحة التي أيقظت في أعماقه ذكرى منسية: صوت تفتح حبات الفستق في ليل الكروم أوان اكتمال القمر. "هذا فستق جيراننا آل الفقش يا أستاذ طلال.. كانوا يعرضونه للبيع في موسمه بساحة الفستق في نهاية سوق السقطية، هناك سوقه الأصلية، في المْدينة..". قالت وداد وهي ترفع حبة ذهبية إلى النور. فأردف طلال: "نعم!. فستق حلبي عاشوري، لا يعرفه إلا من عاش في حلب. وفوحه

المشمس يشبه عبق قهوتها.".أخذ طلال يتسلى بحبات فستق متشققة قدمتها الست وداد، مما كانت قد شمسته وقلبته. هام بالقرمشة الناعمة، تذوق اللب الأخضر المكسو بالأرجوان، الطعم كان لذيذاً، طعم مدجن بالذكرى والحنين. تذكر ألحان الأشجار في ليالي الصيف، فالطعم نقله فوراً إلى ذكريات مع جده: ليالي الصيف في كروم حلب، حيث الطقطقة الخفيفة لحبات الفستق وهي تنفلق على الأشجار المعمرة.. سهرات لا تنسى مع حكايا الناطور الحاج لطوف، وعبق التنباك العجمي والقهوة المرة، صباحات التين والعنب، جني الفستق وتحميله على عربة الكارو، ثم التوجه إلى سوق الفستق..

تأملت وداد في ملامح طلال المنبسطة ثم قالت:

- هذا فستق شمسي يا أستاذ طلال، أما آل الفقش فيدفنون جرة فخار في التراب المتقد بعد ملئها بالفستق المملح. يعني تحميص تجاري، للسوق..

أضاف أبو خالد وقد خرج عن صمته:

- لعلمك يا ستنا.. انتقل سوق الفستق بسبب الدمار الذي أصاب المدينة إلى حي من أحياء بستان القصر، هناك ستجدين أطناناً منه، ليس من فستق حلب العاشوري الشهير، بل من فستق حديث أصبح يزرع بكثرة في حماة ومورك، الشكل نفسه، لكن الطعم! من يتذوق يعرف!

تقدمت ريم واضعة حفنة فستق في يد كل من طلال وأبو خالد..

- هذا "طعمة" من جارنا الحاج صالح، عاد الآن يحصل من كرومه ما يباع، منذ سنوات لم نذق طعم الفستق، الحرب حرمتنا من طيبات الحياة.. لكن حلب تصحو الآن وتمسح عن عينها دمعات غالية..

[12]

لم يكن ترميم المنصورية هو التحدي الوحيد. فمع كل شحنة مواد بناء تصل كان طلال يواجه متاهة من الحواجز العسكرية المنتشرة حول المدينة القديمة. عند حاجز باب أنطاكية أوقفه شاب في العشرينيات، بزيه العسكري المهلهل، وبندقيته المدلاة على كتفه:

- التصريح..

طلب بلهجة لا تخلو من استعلاء.

- أي تصريح؟

رد طلال، محاولاً تهدئة نبرته.

- تصريح دخول مواد بناء.. تصريح ترميم.. تصريح سماح...!

ضحك الجنود من زبون غرّ لم يعرف "العادة" بعد، بينما أشار أحدهم إلى الشاحنة المحملة بالحجر الأصفر..

- هذه تحتاج إلى موافقة الأمن العسكري والأمن السياسي وأمن الدولة!

أدرك طلال أن الأمر ليس مسألة بيروقراطية فحسب، بل ابتزاز صريح. دخل إلى المحرس حيث أشار الشاب المسلح، مد يده إلى جيبه الداخلي وأخرج رزمة من المال، انتزع بعض أوراق ووضعها ببطء على طاولة الحاجز..

- هذا مقابل تسهيل الإجراءات..

نظر الضابط إلى الأوراق النقدية ببرود، ثم همس لزميله:

- هذا واحد آخر يعتقد أننا نأكل الفتات! لكن لا بأس هذه المرة..

لكن الآتي لم يكن بالحسبان، ففي أحد الأيام، بينما كان طلال يشرف على نجارة الأكشاك الجديدة، دخل إلى الدار أربعة رجال بملابس مدنية، أحدهم يحمل مسدساً بدا معلقاً على خصره بحافظة جلدية..

- معنا أمر توقف عن الترميم.

قال أحدهم، وهو يلوح بورقة مختومة.

- على أي أساس؟!

سأل معتز المهندس، الذي كان حاضراً مع عماله..

- تحقيق أمني، في تمويل مجموعات إرهابية تحت غطاء الترميم! أين السيد طلال؟
- أنا طلال، ما الحكاية؟!
- تفضل معنا إذا سمحت.. تحقيق حول حيازة الدولار.. ثم...! هل حصلت على موافقات الترميم؟

رد المهندس معتز:

- عندنا موافقات كاملة، ونظامية.

- والموافقات الأمنية؟! هذه الموافقات التي ذكرتها انقعها واشرب ماءها.. الأساس نحن.. تفضل معنا سيد طلال!

اندفع بقية العناصر يفتشون غرفة طلال وغرفة العجوز المقابلة، بينما اقترب طلال من معتز وطلب إليه أن يسجل على جواله بعض أرقام الاتصال الخارجية، لم يمهله العنصر ليسجل المزيد، بل جذبه من ذراعه واقتاده نحو سيارة مدنية تنتظر في الخارج..

بينما طلب عنصر آخر مغادرة كل من في المنزل، لم يستمع إلى رجاء أبو خالد بالبقاء في غرفته، بل طلب إلى عنصر آخر ختم الباب بالشمع الأحمر ووضع الدار في عهدة المختار.

أُخذ طلال إلى أحد فروع الأمن، حيث قضى ليلته في غرفة مغلقة، جدرانها مغطاة بآثار صراخ.. في الصباح، بدأ التحقيق:

- لماذا عدت إلى سوريا فجأة؟
- من يمول عملك هنا؟
- من أين كنت تحصل على الدولار؟
- هل تعرف هذا الرجل؟

قربوا من عينيه صورة لشخص ملتح..

- لا!

كل إجابة كانت تُقابل بشكوك متزايدة. لوحوا بأساليب أخرى قادرة على انتزاع اعترافاته، نقلوه من فرع إلى فرع، كل جهاز يريد حصته من التحقيق. في أحد الأيام، سمع أحد المحققين يتحدث بالهاتف، ربما كان الهدف أن يسمعه:

- نعم.. برازيلي.. لكن الجنسية لا تعني شيئاً هنا، نحن أدرى كيف نتعامل مع مثل هؤلاء..

في اليوم العاشر من الاحتجاز، وصلت برقية عاجلة من السفارة البرازيلية في بيروت. كانت هناك ضغوط دبلوماسية. اتصل القنصل البرازيلي شخصياً بمسؤول سوري رفيع، مذكراً إياه بأن طلال مواطن برازيلي، وأن تهمة تمويل الإرهاب لا ينهض عليها أي دليل..

- مبروك، لقد أنقذتك جنسيتك..

قال معتز مهنئاً.

- لكن الإفراج لم يكن مجانياً. حصلوا على تعهد وكفالة من السفارة..

رد طلال. وكان طُلب منه التصريح عن الأموال التي تصله، وذكر مصدرها، ودفع "غرامة" ضخمة تحت بند "المخالفات الأمنية"، إضافة إلى مصادرة مبلغ كبير من الدولارات وجدوه في خزانة غرفته.. وعندما سأل عن التهمة بالضبط، قيل له:

- عودتك من البرازيل لغز محير، سنظل نسعى لمعرفة أسراره! إضافة لتعاملك بتهريب الدولار والإتجار به في السوق السوداء بما يهدد الاقتصاد الوطني..".

عندما عاد طلال إلى المنصورية وجدها مغلقة بأوامر أمنية، لجأ أياماً مع أوجاعه إلى غرفته ذاتها في سميراميس، طالع المسيو أنطوان وجهاً تعباً فقد نضارته الأولى، سمع منه عبارات الأسى والخيبة، واساه بكلمات، ذكره بمهمته الصعبة التي ارتضاها كما يحب، حرك طلال كفيه علامة القهر.. في الأيام التالية جهد بمراجعة الأمن السياسي لاستصدار إذن بفتح المنصورية.. تلكؤوا أياماً في الموافقة، ثم استدعوا المختار وألزموه بموافاتهم بتقرير يرصد تحرك المدعو طلال.. وأخيراً فتحت الدار بيد المختار وتعهده.. دخل طلال المنصورية كأنما يراها لأول مرة، أحس بذاته شخصاً آخر غير الذي غادرها منذ أيام، ابتلع الحادثة بغصة ستبقى ندبة لا تمحي، لكنه عاد فتطامن متنفساً بعمق وهو يصافح الحجارة التي رممها، ويقلب النظر في روعة الزخرف ورشاقة الأعمدة، لكن هذا الجمال البادي ظل يرده كما في كل مرة إلى حالة صارت مستدامة من الذهول الأقرب للغياب، دون أن يستطيع الفرار من كوابيس الأيام التي مضت في أقبية الانتظار الباردة..

بعد دقائق طرق الباب العجوز أبو خالد الذي جاء عائداً إلى مكان إقامته بصحبة الحاج أحمد الدلال، عانقا السيد طلال، وأخرج الأخير جواله وفتح (الواتس) على رسالة من

المهندس نبيل، موجهة إلى السيد طلال تبين بالوثائق الموافقات الخاصة بالترميم، من قبل نقابة المهندسين ومديرية الآثار ومجلس المدينة.. كما تبين الرسالة توكيل المحامية سلاف الدالي للدفاع أمام الادعاء الصادر من مجلس البلدية.. "انظر ما كتب": * سيد طلال الترميم نظامي وبموافقات كاملة، لكنهم سيراقبونك. كن حذراً. * وعلق الحاج أحمد:

- القيام بأي عمل هنا له طريق واحد، تسخير أدوات الفساد. هي هكذا!

في تلك الليلة، جلس طلال على سطح المربع العلوي، مستعيداً أحداث الأيام الماضية، مفكراً في النكوص والعودة، لم يكن يتصور أن تكون ضريبة الحب السطو والملاحقة، أو أن يكون الوطن عبئاً على أبنائه وبُناته، كانت الأيام العشرة التي قضاها في أقبيتهم تعادل عمراً كاملاً من أسى مرير، لكنه أيقن في كل لحظة مرت أن الإيمان قوة، وأن إرادته كانت حاضرة بثبات لم يعرفه يوماً.. ومن بعيد سمع دوي انفجار آخر، لكنه هذه المرة لم يهتز. نظر إلى القلعة المضاءة بأنوار باهتة، ثم أغمض عينيه، متذكراً كلمات جده:

"الحجارة لا تموت.. لكنها تنتظر من يقرأ قصتها."

[13]

في صباح اليوم التالي حملت الست وداد قهوتها الفواحة بالمسك والهال.. مع تهانيها وتبريكاتها بالإفراج عن جارها ابن الوزان.. وتخطت الفتحة بين الدارين، ثم صاحت باسم السيد طلال وقريبها أبو خالد، ظهر طلال فبادرته بالإصباح وأردفت:

- لله نجاك من أيديهم يا جار، وألف الحمد لله على السلامة.
- ابتلاء ياست وداد، هذه ليست دولة، بل عصابة مجرمين.. لقد استلبوا كل الأموال التي أملك، دون أن أدري حقيقةً ما التهمة!..لكن لا يهم!

في تلك اللحظة خرج أبو خالد من غرفته مصبحاً بالخير، وجلس الثلاثة في ظل الليمونة يحتسون القهوة وعبق الحرية.. استرسل طلال في الحديث عن أيام القهر في زنزاناتهم وليالي السهد الطويلة..

- لكنهم لوحوا بالعصا ولم يضربوا، أظن أن حصولهم على المال بحد ذاته كان كافياً.
- وأنا تشردت أياماً لا يعلم ببؤسي فيها إلا الله!

قال أبو خالد، ونظر إلى الست وداد محاولاً أن يجد في عينيها صدى لمعاناته طيلة الأيام التي مضت، لكنها صمتت ولم تعلق بكلمة.

هناك، في غرفتها، كانت ريم تعد نفسها لمغادرة الدار لتقضي نوبتها النهارية في مشفى الرازي.. أطلت متوجهة إلى طلال وقدمت باقة ورد شاع عطرها مع كلمات تهنئة ودودة. تبسم طلال ممتناً بينما رفعت يدها مودعة، وطالبة الإذن بالمغادرة.. باركت للعجوز عودته بالسلامة، سألته أين أمضى أيامه خارج المنصورية.. لكنْ فجأة، دوى صوت تحطم زجاج من بعيد، قطعت ريم كلماتها، واندفعت مسرعة إلى السطح، حيث الصوت، وركضت نحو الستارة المطلة على أرض الدار المجاورة، ومن هناك نادت بفزع:

- أم ي ي ي ي.. مخزن بيت الفقش! لقد كسروا الباب، ونهبوا الفستق!

نهض طلال وأبو خالد وتحركا باتجاه السلاملك في مشهد من الهلع، اندفعت خلفهما وداد وهي تصيح

- نهبوا دار الحاج صالح.

هُرع أبو خالد إلى الدار الملاصقة، كان الباب مفتوحاً على مصراعيه، وفي الداخل فوجئ بعدد من المسلحين بألبسة مدنية وأخرى مبرقعة، يتراكضون هنا وهناك، ويخرجون من الغرف أثاثاً وأمتعة، ومن المخزن أكياساً محشوة بالفستق المحمص، تناثر بعضه على الأرض ممتزجاً بحطام الفخار. سأل أبو خالد بشجاعة لا تنقصه:

- عن أي شيء تبحثون؟

نظر المسلح إليه بقسوة.. وكزه بعقب المسدس ودفع به إلى الخارج.

- أنا أسأل! قد أفيدكم بشيء..

- ...

أتم العساكر مهمتهم (الأمنية)، سألوا سؤالاً (نافلاً) عن مالك الدار، أخبرهم أبو خالد أن ملكيتها تعود لآل الفقش. رد من كان يقف ويتابع إخراج الموجودات:

- هذه الدار تأوي إرهابيين، وصاحبها يعمل بتهريب الأسلحة..

في تلك اللحظات كان سهيل الشاب الغامض الذي ظهر فجأة في حارة الجلوم، مفتتحاً دكان كوّى، يقف أمام دار آل الفقش مستطلعاً ما جرى كجار شهم آذاه هذا التعدي على الحرمات والأملاك، نظر بامتعاض وهمس في آذان من تجمعوا يشهدون ما يجري: "هذا توحش! وسرقة موصوفة في وضح النهار!". الذين أقدموا على اقتحام الدار، انشغلوا بجر المجامر النحاسية وأكياس الفستق نحو الباب، وتفتيش الدار بحثاً عن

أسلحة أو أي شيء (يباع..) كدسوا ما تبقى من الأثاث في الحارة قرب الباب، فيما وقف سهيل في الطرف الآخر من الحارة وهمس في أذن العجوز مستنزلاً اللعنات على كل ظالم، في حين قام آمر المجموعة بطرد من تجمع في المكان، "من أراد ألا يكون طرفاً في الجناية فليختف من هنا حالاً..". ثم لم ينطق كلمة أخرى، فقط أشار إلى عناصره بعصا في يده لحمل آنية النحاس وبعض أكياس متخمة بفستق محمص، وتلفاز ملون وقطع أثاث، باتجاه (الجيب) المتوقفة هناك، ثم المضي نحو (الكولبة) القائمة على دوار القلعة، جانب أنقاض فندق (الكارلتون)، حيث وقف الضابط وسام ينتظر وينظر من خلف نظارته السوداء عابساً، ثم آمراً تاجر الخردة الواقف إلى جانبه أن يقدر قيمة النحاس والفستق والمتاع وينقده الثمن..

أمام دار الحاج صالح، ظل سهيل يسب ويلعن على مسامع من تَجَمَّعَ من الجيران والعابرين، وبشهامة الجيرة ساعد العجوز بحمل ما تبقى من أكياس الفستق في ركن القبو إلى الست وداد، لتحتفظ بها وديعة للجار المنكوب.. بعد قليل عاد أحد عناصر الأمن وصلَّب باب الدار بخشبتين، ملصقاً في أعلاه لافتة كُتب عليها:

" تحذير.. لا يفتح إلا بمراجعة الأمن السياسي."

كان موسم جني الفستق قد بدأ منذ أيام، وكان الحاج صالح منشغلاً بالجني والتسويق ومحاسبة العمال والنواطير، تأمل هذه السنة أن يحصّل مردوداً جيداً يعوضه عن سنوات الحرب وويلاتها.. لكن ما جرى للدار لم يكن مفهوماً ولا مبرراً، ليس من قبل الحاج صالح فحسب، بل حتى من سهيل الذي كان قد علم في الأيام الأولى من موسم الفستق، من النقيب وسام، بأن أوامر جاءت بمداهمة مخزن الجلوم وتفتيشه واستباحته، وأنه أعطى الضوء الأخضر لعناصره الأمنية بخلع الباب واقتحام المخزن..

بعد المداهمة، كان النقيب وسام ببدلته المبرقعة ونظارته المعتمة يقف عاقداً يديه أمام صدره، نظر إلى ما تم تعفيشه باستهانة، والتفت إلى سهيل قائلاً بسخرية زادت الأمر غموضاً:

- فستق! الفستق لا يساوي شيئاً، والنحاس أيضاً، دعك من كل هذا، كل ما نريده الآن أن تبقى الدار في عهدتنا..

رد سهيل:

- سيدي إذا أمرت دعنا نرصد تحركات الحاج صالح، وأنا أرسلت إلى الحي من يتتبع كل تحرك مريب.. هناك عيون غير عينيَّ ترصد كل شيء.. وأنا..
- لا.. لا..هذا الحاج صالح دعك منه، ليختفي أين شاء وإلى متى شاء، عمدتنا الآن السيد طلال وبيته المفتوحة أبوابه لكل من هب ودب من أهل الحي ومريدي التراث، هه. أموال طائلة لازالت تدفع يا سهيل باسم الترميم، لا نعرف مصدرها ولا قنوات صرفها..

[14]

كان أبو خالد يحتفظ برقم جوال الجار الحاج صالح، فقام بإخباره بما حصل، مؤكداً على ضرورة اختفائه عن الأعين الراصدة، لأنه بالتأكيد قد أصبح مطلوباً للمفرزة الأمنية، ولا أدل على ذلك من إلصاق لافتة على باب الدار تأمر بعدم الإقبال على الدخول إلا بمراجعة الأمن. وفعلاً، فقد سارع الحاج صالح بالاختفاء، وغادر في الحال سوق بستان القصر قاصداً تلجبين، لم يتجرأ أن يقصد مخزنه أو يتحقق من السبب.. لكنه بعد أيام سيعود متخفياً، سيقترب من داره، ويقرأ اللافتة المعلقة، فيتوجه إلى باب الست وداد، ويتردد قليلاً في دقه، ثم تمتد يده وتحرك (السقاطة) النحاسية بدقات خفيفة مرتعشة، في تلك اللحظة يظهر أبو خالد من باب المنصورية مرحباً بصوت هامس بقدومه، فيما ينشق باب الست وداد عن وجه قلق يدعو العجوزين إلى الدخول دون تلكؤ لأمر هام، لبى الرجلان الدعوة وأصبحا في صحن الدار.. عادت الست وداد تكرر عبارات التهنئة بنجاة الجار الغالي.. ثم:

- أنت تؤوي إرهابيين في بيتك يا حاج صالح، ونحن أقرب جيرانك ولا نعلم!

لم يجب الحاج صالح وهو يستمع إلى هذا الغمز اللطيف، بل ردد ببؤس ظاهر كلمة "إرهابيين"، ثم جرّ شيخوخته وقصد المربع العلوي في دار الست وداد، بعد أن استأذنها، ونظر من الستارة المطلة على داره، وتجولت عيناه في صحنها الواسع، حيث تناثر الحطام الفخاري مختلطاً بالفستق وأدوات التحميص، حوقل مرات، ثم عاد فنزل بطيئاً إلى حيث طلال والست وداد وريم وأبو خالد قد تجمدوا في مكانهم يشهدون فيض حزنه، فوقف مسنداً كفيه إلى حوضه فعل المتأسف المقهور، ثم جالساً على كرسي، متهالكاً على عجزه..

- والله.. منظر الدار يعمي البصر.. يعني فعل أولاد حرام، خربان ديار..

خاطب الحاج صالح الست وداد، ثم التفت إلى طلال.. فسارعت ريم إلى التعريف به:

- السيد طلال الوزان جارنا الجديد في بيت جده منصور..

أحنى الحاج صالح رأسه بود، مرحباً، فيما همست ريم لطلال:

- إنه تحذير لك يا جار! إذا قصدوا الأمرُ هيّن.. عادوا فألبسوك أي تهمة!

سأل أبو خالد مداعباً:

- ما قصة الأسلحة يا حاج؟!

رد الحاج صالح:

- أي أسلحة يا رجل؟! وكيلكم الله أنا لا أملك إلا بندقية صيد بيد الناطور..

علقت ريم:

- على أي حال ما فعلوه في دار الحاج صالح لم يكن يلزمه اتهام خطير كهذا، هم يفعلون ما يريدون دون مبررات، ومسلسل التعفيش في البيوت المهجورة لا يتوقف!

أضافت الأم:

- في البيوت المهجورة، وغير المهجورة، وأمام عيون أصحابها! ومن يقف في وجههم مدعياً ملكيته للأشياء التي صارت في حوزتهم، تأتيه الصفعة وهم يتهمونه بحيازة بارودة وجدوها في داره، فيضطر المسكين للإنكار ويطلب النجاة.

اقترب العيد، وخلّف نهبُ دار الحاج صالح استنكاراً وغضباً عاماً في الحي، لكن الست وداد على الرغم من مشاركتها حزن جارها باشرت بصنع حلوى الكرابيج والمعمول، بالسمن العربي، وبلب الفستق العاشوري من بقايا المخزن المسروق. قلبته في المجمر

النحاسي على نار هادئة، ومن ثم أضافت القرفة وماء الورد والسكر المطحون، الذي راح يلتمع كالثلج تحت الضوء.

عندما قدّمت ضيافة لطلال وأبو خالد، بادرت بالقول:

- تذوقا هذا الطعم ثم احكما! إنه فعلاً ترابة حلب تنطق!

عند أول قضمة، انطلقت قرمشة السكر تحت أسنان طلال، ثم انسكب طعم الفستق الحلو الأليف، فشعر كأنما يعتصر كروم حلب في فمه. علق أبوخالد مشيداً بحلوى وداد:

- في كل الأحوال فإن الفستق هذا أصبح مقروناً بكلمة حلبي، مقترناً بأشهر أنواع الحلو العربي، بل صار الفستق أهم جسر بين عصور سادت فيها حلب كمركز للتجارة والحضارة. أيام زمان مضت ولن تعود، كنت تسمع صوت انشقاق القشور كفرقعة الأصابع.. كان الموسم يبدأ بنغمات الحياة، لا بانفجارات الموت، الآن، استبيحت معظم الكروم في حلب، كما استبيحت بالأمس دار الحاج صالح، تحولت الكروم إلى أراض قاحلة، إبان سنوات العدوان وما قبلها، وتم نقل بذور الشجرة إلى ريف إدلب وحماة، فصار الفستق العاشوري والعليمي وناب الجمل عملة نادرة. لقد نقلوا بذور الشجرة يا أستاذ طلال، لكنهم نسوا أن ينقلوا النكهة. مصدر الفستق الحلبي الأصلي ضاع، ثم نبتت في مساحات الكروم حارات عشوائية لا متناهية كأشواك غريبة، شكلت زناراً من أبنية قبيحة متراصة متهالكة حول المدينة..

استقرت كلمات العجوز في رأس طلال كيقين، لدرجة أنه حرص بعد أيام على زراعة برعم أخضر في أنقاض الدار، أوصى عليه من كروم تلجبين، نما البرعم ليكون شتلة فستق عاشوري مطعّمة على أصل حلبي، غرسها قرب شجرة الليمون في الدار. قائلاً لريم:

- هذه الشتلة مقاومة.. مثلنا. يوماً ما سنسمع طقطقتها في حلب من جديد. الحلوى ليست طعاماً يا عزيزتي بل رسالة من زمن جميل.

ردت ريم:

- خاصة حين تذوب حبة فستق حلبي في فمك.. تتذكّرْ حينها أن الأرض التي تلد الذهب الأخضر لا تموت.

[15]

كانت أصابع المهندس معتز سروجي تتحسس الجدران بحركاتٍ دقيقة، كأنها تترجم لغة الحجارة الصامتة. توقف عند الليوان المنهار بفعل القذائف، رفع نظارته إلى السقف المحطم، ثم أخرج دفتراً قديماً من جيبه وبدأ يرسم بخطوط سريعة:

- الدار أصيلة.. تعود إلى أواخر العهد العثماني، لكنها بُنيت على أنقاض دار أقدم.. هنا..

أشار إلى قاعدة عمود رخامي مكسور، وإلى الجدار الشرقي القديم.. وافقه المهندس نبيل قائلاً:

- الحقيقة أن هذه الزخارف تشبه تلك الموجودة في المدارس المملوكية.

طلال، الذي كان يشعر بأنه يمسك بخيط خفي يربطه بالمكان، سأل بلهفة:

- هل يمكن ترميمها لتعود كما كانت؟

رفع معتز عينيه عن الدفتر، ونظر إليه نظرة طويلة:

- يا سيد طلال، الترميم ليس مجرد إصلاح جدران وأسقف.. الترميم هو إحياء ذاكرة. سأحتاج إلى حجّارين يعرفون فن المُقرنصات، وإلى خشب الجوز القديم، وإلى..

توقف فجأة عند زاوية من الليوان، حيث لاحظ نقشاً بالخط الكوفي تحت طبقة من الغبار، أزاحه بفرشاة، وظهرت عبارة: «الملك لله، الكافي هو الله».

- هذه العبارة لا تُنقش إلا على دور العائلات العريقة..

همس معتز، وكأنه يكشف سراً. ثم أضاف بلهجة أكثر جدية:

- الدار ستكون مشروعاً شائكاً.. فالخراب كبير، والحرب لم تنتهِ بعد.. هل أنت مستعد لهذا؟

أجاب طلال دون تردد:

- لقد عدتُ من أجل هذا بالضبط.

بحلول الظهيرة، انضم إلى الدار مقاول جديد كان الحاج أحمد قد رشحه لطلال، عرف عن نفسه:

- أبو عدنان.

رجلٌ ستيني أسمر، يقلب سبحة يسر في كفه.

- محسوبكم ابن حارة (العقبة).. أعرف هنا كل هذه الدور، ورممتُ بعضها قبل أن تدمره القذائف.

قالها بفخرٍ ممزوجٍ بمرارة، ثم ألقى نظرة على الدار وأضاف:

- لكن هذه.. سأحتاج إلى عمالٍ من أيام زمان.. يعرفون كيف يخلطون الجص بالتبن، وكيف ينحتون الحجر الأصفر..

نظر طلال بجد إلى معتز وأبي عدنان، حاثاً إياهما على البدء.. في اليوم التالي بدأ العمل. وصل أبو عدنان مع حجّارين أتى بهم من باب أنطاكية، يحملون أدواتهم البدائية، وشرعوا بنحت الحجارة المتهالكة، وتفصيل أخرى.. خلال العمل اكتشفوا تحت طبقة من الدهان الحديث زخارف نباتية مطمورة.

- انظر!

صرخ أحدهم، وهو يزيح التراب عن بلاطة في الأرضية، كشف تحتها عن فسيفساء زرقاء وحمراء بمكونات متداخلة وتوريق زخرفي.. قال أبو عدنان:

- احترسوا في استعمال الأزاميل، هذه أندر ما يكون من الفن.. قد حرص من سبقوا على إخفائها عن أعين الغرباء..

بعد أسابيع من عمل يومي، بدأت المنصورية تستعيد رونقها. الليوان أعيد بناؤه بحجارته الأصلية، عاد قوسه المهيب ينثر الجلال في فضاء الدار، والأكشاك الجديدة نُحتت من خشب الجوز القديم الذي وجدوه مخبأً في إحدى الغرف، والبركة المثمنة عادت تزدهي بمائها الرائق وزهرات الياسمين العائمة فوقها، وها هي شتلة الفستق أخذت تطلق أوراقاً زاهية.. حتى شجرة الليمون العجوز، التي ظنوا أنها ميؤوس منها، فاح عطر زهرها، وبدأت تطرح براعم خضراء بعد أن سقاها طلال بيديه.

لكن المدينة حولهم كانت لا تزال تنزف، وأصوات قذائف بعيدة ظلت تسمع في كل حين.. الأمر الذي دعا المهندس معتز ذات مرة وهما في الطريق إلى المنصورية ليقول لطلال:

- سيد طلال هل تدرك ما تفعله، وهل هذا وقته؟! نحن نعيش في وسط مجرمين قتلة، أنت لا ترمم داراً يا سيد طلال! أنت تزرع بذوراً في أرض محروقة.

رد طلال:

- اسمع يا معتز.. سورية في حقيقتها ليست جغرافيا، بل ذاكرةٌ تنهض من تحت الركام، تبحث عن ذاتها في عيون من لم ينسوا، وفي أصوات من لم يصمتوا.

في تلك اللحظة صاحت امرأة قريبة تتسول ماشية على عكاز وقدم واحدة، على ظهرها حمالة قماشية مربوطة إلى العنق يبرز منها رأس طفل..

- انظر! هذه الشحاذة أم نوري، فقدت ساقها بعد أن أصيبت بشظايا برميل متفجر سقط في حي الشعار.. ومثلها أمثال!

قال معتز. حدث طلال نفسه ذاهلاً وهو يلهث بفعل الخطو المسرع: "لقد فهمت الآن.. لماذا أعطاني جدي الميزان.. ليس لوزن الذهب.. بل لوزن ما تبقى من إنسانيتنا."

في الليل، بينما كان طلال يسجل ملاحظاته في مفكرة جواله، صعد إلى السطح وراحت نسمات رقيقة تداعب وجهه كأنها مروحة جدته الخيزران في ليلة صيف حارة، ونجمة المساء ظهرت فوق سور القلعة كما لو أنها فانوس أزلي، وفجأة تأكد أن الزمن ليس أكثر من حلقة تبدأ وتنتهي عنده، عنده وحده الآن في هذه الساعة بالذات، في هذا البيت العربي القديم الذي ضمه كحضن رحيم، الذي علّمه أن الحجارة تنتظر من يزيح الغبار عنها لتصرخ بأصوات الحياة من جديد.

من الجهة الأخرى أشرف على المدينة.. من بعيد، فتراءت له هاجعة تحت أضواء شحيحة تبدو متناثرة وغارقة في الظلمة. أما في الجهة المطلة على صحن الدار فكانت بركة الماء التي ملأها لأول مرة تعكس ضوء القمر على حجارتها الزرقاء، وكأنها ترد له التحية. تمنى لو عرف كيف يكتب الشعر، إذن لقال أشياء كثيرة، اصطرعت هناك.. وفي خياله وضع عنواناً لما جال في رأسه في تلك اللحظات، ففتح مفكرة جواله ثانية وخط كلمات تحت عنوان: «حجارة الذاكرة - يوميات عائد إلى حلب»:

"البيت القديم... ذاكرة الأسرة التي لا تُمحى، البيت القديم ليس مجرد جدرانٍ تهالكت، ولا نوافذَ أكلها الغبار، ولا أبواباً تصرّ عند كل فتحٍ وإغلاق. البيت القديم هو حكايا الجدة المكررة، هو الذاكرة التي تسكننا، حتى لو غادرناها. هو أول بكاء سمعناه، وأول ضحكة شاركناها، وأول جرح في الركبة، وأول قبلة على الجبين. في البيت القديم كانت المائدة عامرة، تتّسع للجميع، وكانت الغرف واسعة، تحتضن الأحلام الكبيرة، فيه كانت الأم تُنادي من المطبخ، والأب يُصلح شيئاً لا نعرفه، والأخ يصرخ في وجهك، ثم يقاسمك نصيبه من قطعة الشوكولا. البيت القديم لا يُنسى، لأنّه لا يُشبه أي بيت، هو المكان الذي تعلّمنا فيه كيف نكون أسرة، وكيف نختلف دون أن نتفرّق، وكيف نغضب دون أن نكسر، وكيف نحبّ دون أن نقول. كل زاوية فيه تحمل قصة، كل بلاطة تحفظ سراً، كل رائحة تثير ذكرى، وكل شقٍ في الجدار يُشبه تجاعيد وجه جدٍّ ضحك كثيراً، وبكى قليلاً، لكنّه لم يشتكِ يوماً. البيت القديم لا يُباع، حتى لو بيع، لأنّه يسكننا، في لهجتنا،

في طبخنا، في طريقتنا في فتح الباب، وفي حنيننا، بل وندمنا الذي لا يعرف النوم، على أشياء كان بإمكاننا أن نفعلها ولم نفعل."

ثم أطفأ جواله، تاركاً للقمر وحده مهمة إضاءة تلك الحجارة القديمة، التي بدأت تتنفس من جديد.

[16]

بعد أشهر متواصلة من العمل، استعادت المنصورية جزءاً من روحها. الليوان المُرمّم بقوسه المرتفع بات يستقبل ضوء الشمس كالسابق، والبركة الحجرية عادت لتُملأ بالماء بعد تنظيفها من رواسب الزمن، حتى شجرة الليمون العجوز، التي ظن الجميع أنها ميؤوس منها، بدأت تطرح أوراقاً خضراء وكرات ليمون صغيرة داكنة، بينما تعاظمت شجيرة الياسمين وزهت في حوض قرب الدالية وحول البركة.. في الصباح كانت الشمس تشرق متمددة في صحن الدار، نظر طلال إلى المشهد كأنما يراه لتوه، وأيقن أن الحجارة ستظل شاهدة، حتى عندما يصمت البشر.

في ليلةٍ هادئة بدار الجلوم، بينما كان طلال يجلس أمام شاشة الحاسوب يتفحص صوراً قديمة لأبنائه في ساو باولو، قرر أن يخاطر بمكالمة فيديو. الوجوه التي ظهرت على الشاشة متجمعة أمام الكادر كانت تحمل ملامح تشبهه، لكنها تتنفس برودة المنفى:

- بابا، أخيراً! كنا قلقين!

صرخت ابنته الوسطى "سنا".

- هل صارت حلب آمنة؟

سأله ابنه "بسام" ببرود المقتنع بعدم العودة.

- الأمان ليس مكاناً... الأمان أن نعود إلى حيث تنتمي أرواحنا.

أجاب طلال. بينما كانت عيناه تلتقيان بصورة جده منصور المعلقة على الحائط. لكن الردود كانت جاهزة:

- نحن هنا لدينا أعمالنا، منازلنا، جنسياتنا!
- حتى لو سقط النظام، فخراب البلد يحتاج عشرين سنة لإصلاحه!

رد الأب:

- القيمة الحقيقية في العالم هي الحب، وكل ثروتنا في الغربة من الذهب لها نصيب من البريق، وتملأ العين حقاً، لكنها لا تُطعم الروح.

صمت الطرف الآخر. ثم قال بسام بهدوء:

- أبي! أنت تتحدث كرجل عاش حياته... لكننا نحن هنا لنا الحق أيضاً أن نفكر كيف نعيش حياتنا!

طوال الوقت كانت عينا طلال معلقة بوجه ابنته الصغرى لورا، التي لم تعد صغرى، والتي ظلت معتصمة بالصمت.

في اليوم التالي، بينما كان طلال يخرج من سوق الزرب باتجاه ضريح النسيمي، رأى طفلاً يجمع بقايا كتب مدرسية من بين أنقاض مدرسة الزهراوي، أعطاه صرة حلوى من جيبه، فسأله الطفل:

- عمي أنت تسأل عن بيت أحد هنا؟!
- لا يا حبيبي، أنا من هنا، أنا مثل هذه الحجارة..

وأشار إلى حائط المدرسة المتبقي.. في المساء، جلس يكتب رسالة لأبنائه:

" أعزائي بسام، سنا، لورا..

لو عدتم ستجدونني أشرب قهوتي تحت الليمونة، بالتأكيد لن تجدوني غنياً كما غادرتكم، لكنكم سترون داراً تسقي شجرة ليمون، ودالية حصرم سبيعية، وبركة تعكس وجه القمر، وياسمينة معرشة فوقها، وشتلة فستق عاشوري، وحجارة تحمل اسمكم، المال يزول، لكن هذه الحجارة الدهرية ستظل.

الوطن ليس مكاناً نعيش فيه... بل مكاناً يموت فينا ببطء عندما نغادره، شتان بين جيل يحمل ذكريات الوطن، وجيل يبحث عن وطن جديد.. أشد ما يؤلمني الآن يا أبنائي استحالة العودة، لا عودتكم فحسب، بل عودة كل من هجر من الجيل الفتي، حتى عندما يسقط الطغاة.

أبوكم الذي لم يتوقف عن الانتظار..

لن تكون النهاية كما توقعناها..

ستموت المدينة ألف مرة..

لكنها ستنهض في المرة الواحدة بعد الألف."

خط الرسالة على (الماسنجر)، لكنه لم يُرسلها. كان يوقن أنهم لن يأتوا.

[17]

كان ضوء الفجر البارد يتسلل عبر نوافذ دار الجلوم المغطاة بغبش الدفء الذي كانت تشيعه مدفأة الحطب العتيقة. طلال استيقظ على صوت دوي بعيد يشبه أنين المدينة. نهض من فراشه المتواضع، خرج من غرفته، لم يشأ أن يوقظ أبو خالد كما في كل مرة.. بل صعد إلى الكشك الجديد، سحب كرسياً خشبياً نحو نافذتها وجلس. من هناك، رأى حارة خالية إلا من عجوزين يجران عربة فيها بعض ربطات الخبز. لم يعد هناك شباب في تلك الأماكن، لم يلحظ وجوداً لهم في الحارة، فقط ظلالهم التي تلوح في ذاكرة الجدران. فكر أن حلب صارت تشبه جسداً نزف منه كلُّ دمِه الشبابي...

تناول بعض لقيمات من عشاء البارحة دون أدنى شهية، ثم نادى على أبو خالد، وغادرا معاً إلى مقهى السعد، دخلا واستقبلهما هواء مشبع بالدفء ورائحة القهوة المرّة ودخان التنباك الأصيل، جلسا في زاويتهما المعتادة، وأخذا يراقبان بصمت تساقط الأمطار الذي بدأ يشتد.. كان طلال - بصحبة أبو خالد - قد وجد في المقهى شرفة وفسحة، منها استطاع أن يطل على الناس حتى كاد أن يلمس وجيب قلوبهم، والحال أنَّ ما لم يجده في ساعات عمره النافذة هناك وراء البحار، وجده هنا في الأخبار (المفلترة)، في حكايا الناس، في الأماني والحسرات والهواجس وعذابات المصير.. وجد نفسه هنا كما يحب، وبألفة طابت وسكنت روحه، هنا وجد آراء الجالسين تتجاور كما تتجاور الكراسي، كما تتجاور صور الغائبين معلقة على الجدران. أبو خالد كان همزة الوصل بينه وبين (الشلة)، بينه وبين حياة تستمر رغم الألم والحسرات..

يتنهد أبو خالد ثم يطلق زفرة طويلة متوجهاً إلى طلال:

- هل تعلم! هذا المقهى الذي كان يوماً مكاناً للقاءات الأدبية والصحفية والشبابية، يتحول اليوم إلى متحف للغياب كما ترى!

يتلفت طلال متأملاً صور شبان معلقة على الجدران بإطارات صدئة، كل صورة تحكي قصة هروب أو غياب.

- ثلاثة أكواب قهوة اليوم يا أستاذ أبو علي!.

انتشله صوت أحدهم مخاطباً أحد الوجوه المألوفة في المكان. رد المخاطب بسحبة دخان وإطلاق زفرة، في حين ضحك أبو رجب صاحب المقهى وهو يهز رأسه متوجهاً إلى طلال:

- لم يعد أحد يشرب القهوة هنا يا أستاذ.. إلا نحن الأشباح.

وأشار إلى الصور المعلقة:

- انظر!. هذا وصلَ السويد، وهذان أخوان غرقا عندما أبحرا في (البالم)، وهذا... الله أعلم أين اختفى.. هنا كما ترى لم يعد يجلس سوى نحن العجائز وهذه الأركيلة العجمي، وهذه:

وحسر عن رأسه شملة فلسطينية انكشفت تحتها صلعة مستديرة، وفودان مكسوان برماد السنين.. عاد طلال فتاه عن حديث أبو رجب وأخذ يتأمل جدران المقهى الباهتة، ثم سأل:

- حقاً أين الشباب؟ كأن حلب خلت منهم..

أجاب أبو رجب بعد نفخة دخان:

- نعم! سُرقوا! تبخروا في دنيا الله، بعضهم بإرادة الحياة، وبعضهم بالخوف، النظام لم يسرق الحاضر فقط، بل سرق المستقبل بسرقة الشباب. يعني ما قيمة وطن فقد شبابه؟!

فكر طلال: ما هذه المفارقة المؤلمة؟! أنا جئت أبحث عن الماضي، وهناك من سرق الحاضر والمستقبل. التفت إلى وليفه العجوز، وثبت نظراته في وجهه، وتأمل احتقان الدمع في عينيه، مستحضراً أحاديث الفجيعة التي طالما فاه بها.. صمت الاثنان وعادا يتأملان سقوط الأمطار والشارع الممتد في كل هذا الفراغ.

[18]

المحامية سلاف أمضت شهوراً تلاحق سجلات وأسماء ضائعة فيما يخص حصر إرث المنصورية، خلال تلك الفترة شيء ما شدها إلى بيت الست وداد، وبيت أسرارها ريم، التي وجدت فيها الرأفة بسيرتها ودموعها.. ظلت تمضي أوقاتاً تطول معها، تداري وحدتها وعقدتها، ثم تعود في المساء إلى حجرتها المقتطعة من مدخل بناية بحي التلل، هناك كانت تنغمس في ملفات شائكة، وتشرد أحياناً ويأخذها السهوم بعيداً، وهي تدير بين أصابعها خاتماً بسيطاً من الذهب، خطيبها سامر تركه لها قبل أن يختفي في طريق الهجرة. هجمة دمع تداهمها كل مساء، فتفتح مفكرة جوالها وتكتب رسائل تعرف أن لا أمل من ورائها:

"عزيزي سامر! اليوم مرت ثلاث سنوات وأربعة أشهر وسبعة عشر يوماً. لا زلت أضع فنجان القهوة لك على المائدة كل صباح. في الحي لم يبقَ سوى العجائز والأرامل. حتى الحرب شعرت بالملل منا..."

وعند محطة الحافلات المهجورة، تمر كما في كل مرة وتنظر إلى الطريق الذي يبتلع الجميع ولا يعيد أحداً.

كان سامر في أول سفره يتصل كل يوم، يرسل رسائل حب طويلة، يعدها بأنه سيعود عندما "تتحسن الأوضاع". ثم تحولت المكالمات إلى مرات في الأسبوع، ثم إلى اتصالات عابرة في المناسبات، ثم... إلى صمت مطبق منذ شهور.

لم تعلم سلاف إن كان سامر قد ظل ذلك العاشق الذي عرفته، أم أنه تزوج هناك، أم أنه نسيها كما تنسى المدن من هجروها. قالت لريم ذات مرة:

- الغربة يا عزيزتي ليست مكاناً. الغربة لحظة تدرك فيها أن من تحب لم يعد موجوداً في حياتك، لكنه لم يمت بعد لتندبه. إنه معلق بين السماء والأرض، وأنتِ معلقة معه.

كان طلال قد وقف على تفاصيل قصتها مع سامر، واليوم رآها في حالتها المعهودة من السهوم:

- الوفاء شيء جميل، ومن أنبل شروط الحب..

انتبهت سلاف إلى كلماته، عاد فأضاف:

- هل ما زلت تؤمنين بأنه سيعود؟
- قال سيرسل لي، لكن كما ترى لا يظهر في السماء إلا الطائرات.. طائرات تحمل رسائل أخرى..

ونظرتْ إلى الأفق حيث تختفي الشمس خلف دخان المدينة المدمرة، ثم التفتت إلى طلال وقالت بنبرة حزن كست ملامحها بطبقة أخرى من الوجوم:

- سألتَني هل تؤمنين؟ ليس إيماناً... بل رفضاً لأن أموت قبل أن أرى النهاية..

في آخر النهار تأوي سلاف إلى بيتها ومكتبها ذي الغرفة الواحدة، وتظل تعدُّ الأيام على تقويمٍ ممزق. كل ليلة تفتح حاسوبها العتيق لتتفحص رسالته الأخيرة: "سأعود عندما يُصبح بإمكاننا بناء بيت فوق الأنقاض.. في كل الأحوال ليس قبل أن تهدأ العاصفة".

لكنها تعرف الحقائق: سامر يعمل ست عشرة ساعة يومياً في معمل نسيج باسطنبول. جواز سفره منتهي الصلاحية. الطريق الوحيد للعودة هو دفع رشوةٍ لسماسرة الحدود، وهو مال لا يملكه..

في الصباح تحمل حقيبة ملفاتها وتقصد القصر العدلي، تتابع عملها الروتيني، إضافة إلى معاملة حصر الإرث الخاص بالمنصورية، هناك تلتقي بطلال الذي يبادرها بالقول:

- أنا أشهد أنك محامية بارعة، أطمئن دائماً إلى أنك ستربحين أي قضية، إلا قضيتك، فأنت لا تتقدمين فيها خطوة واحدة..

تنظر إليه بعتاب، وتتذكر لحظات الوداع، فتخنقها العبرات الحبيسة.. طلال يتأمل حزنها البادي بإشفاق:

- هل ما زلتِ تؤمنين بعودته؟

تجيب وقد التمعت في عينيها دموع عنيدة:

- الأمل ليس اختياراً.. إنه بقايا غريزة البقاء.

يعود طلال يتأملها بعينين تعرفان الحقيقة:

- سامر لن يعود. لا أحد يعود..

ورغم إطلاقه هذه العبارة القاسية فقد فهم في تلك اللحظات أن مقاومة النسيان قد تكون أهم من إعادة البناء.

في المساء.. وفي غرفتها الوحيدة، فتحت سلاف مفكرة جوالها وخطت عبارة من تلك التي تسجلها كخاطرة ملحة في كل مرة:

" أفكر أحياناً أنني خلقت للمكابرة والعناد، لكن يبدو أني يجب في النهاية أن أسلّم باختفاء سامر، كما لو أنه لم يكن، وكما اختفت كل الأشياء الجميلة في حياتنا.. سامر كان مجرد ظل آخر ضاع في زحام المغتربين."

أتبعتها بعبارة أخرى:

"الوطن يصبح غريباً عندما يتحول إلى متحف لضحاياه، يا الله ما أقسى أن تموت العدالة قبل أن تتحقق!"

وتذكرت عبارة في إحدى رسائل سامر قبل أن تنقطع، فعادت وخطتها: "سلاف... الحب الحقيقي لا يموت، لكنه أحياناً يضيع في الطريق."

في محاولة لشد العزائم، وانتشال سلاف من لجة أحزانها، قرر طلال تنظيم أمسية في المنصورية تحت اسم (ليلة الغائبين). أدهم - الدليل السياحي الذي تعرفه طلال في المقهى - كان المنظم. قدم إلى الدار متطوعون من حي الجلوم والسفاحية وباب قنسرين، وجمعوا بعض صور باهتة لشباب مهاجرين أو مختفين، وعلقوها على جدران القاعة الكبرى.. عائلات عديدة من الجوار جاءت تحمل شموعاً وصوراً وذكريات.. سلاف علقت صورة تجمعها هي وسامر في الحديقة العامة، تأملتها ريم وهمست لسلاف:

- جميلة فعلاً هذه الحديقة.

ردت سلاف:

- حديقة بأفياء ظليلة، لكنها لم تكن معدة للوقاية من القذائف..

فنان من حي القصيلة علق لوحة بالمائي لربيع واخز، فقد رسم حقلاً يكتسي بشقائق النعمان التي بدت للجميع ضربات حمر أخرى فوق الجراح..

ودخل أبو خالد وسط الجمع متوجهاً إلى جدار فارغ وعلق عليه صورة للشهيدتين امرأته وابنته، وأخرى بانورامية لمدينة كانت يوماً مليئة بالحياة. انتبهت سلاف إلى العجوز، كان ينظر إلى الجدار ويبكي موارياً دموعه، في تلك اللحظات استحضرت حبها الضائع، وأدركت في الحال أن صورتها وسامر في الحديقة ليست شيئاً يمكن أن يقارن بالصورة التي علقها أبو خالد لزوجته وابنته، وهاهو أمامها يبكي بدموع وطن كامل ومدينة وحي وذاكرة شعب، ووجع لم يغادر أصحابه يوماً. وحدثت نفسها: "هذه ليست دموع فرد في لحظة ألم أو ضعف، هذه دموع جيلٍ كامل، كبر على حكايات الدم، ويحلم بمستقبل مشرق من دونها. الوجع في سوريا لا يُنسى، بل يُورَّث، ينتقل من جيل إلى جيل، في الحكايات، في الصمت، وفي العيون التي رأت ما لا يُحتمل."

وقفت سلاف إلى جانبه، تأملت الصورتين المعلقتين، وضعت كفها على كتفه، وبادرت بالقول:

- دموعك غالية يا أبو خالد، فعلاً، ما أقسى أن تكون الصور مجرد ذكرى انطوت مع زمن مضى، صوراً عامرة حقاً، لكن بالمأساة والفجيعة لا بالحياة!

[19]

في زقاق الفرافرة الضيق، حيث ظل طلال يمر من هناك، يشده حنين قديم، كانت أشعة الشمس تخجل من الدخول، وفي الوقت ذاته كان الضباب الخفيف يُذيب حدة أنفاس الشتاء.. رأى طلال العجوزَ الحاج حمدي، الذي تعرّفه سابقاً، يحاول إشعال موقد صغير في صفيحة معدنية أمام منزل لم يتبق منه إلا الجدار الأمامي.

- الشتاء سيشتد يا أستاذ طلال..

قال العجوز بصوته المتهدج وهو ينفخ على الجمر الخافت، وأضاف:

- لكننا تعلمنا أن ندفئ أنفسنا بحرارة الذكرى..

ولاحظ طلال كيف كانت أصابع الشيخ المرتعشة تمسك بقطعة قماش قديمة، ربما كانت جزءاً من ثوب زوجته التي قضت في الحرب، يلفّ بها يديه للحصول على دفء وهمي.

طريق السبع بحرات المفضي إلى عوجة السجن، والذي كان يوماً يعج بالمخازن التجارية ومحلات العطارة وبيع الجملة؛ تحول إلى مقبرة للذكريات. لاحظ طلال كيف أن المكان الذي كان زاخراً بالألوان والأصوات والحركة قد تحول إلى تلال من الأبنية سويت بالأرض تماماً، وإلى عدد من الدكاكين المغلقة بأقفال صدئة، وواجهات محطمة تعرضت للنهب، انتشر أمامها بعض العجائز يجلسون واجمين وقد نثروا أمامهم بسطة خردوات كأسلوب مخفف للتسول، بينما راحوا يحدقون في الفراغ كما لو أنهم ينتظرون زبائن من عالم آخر.

في منتصف الطريق، صادف طلال امرأة تضع طفليها النائمين في عربة خشبية.

- أين زوجك؟

سألها طلال بفضول عذَّبَه. أشارت المرأة بيد مرتعشة نحو كومة من الأنقاض في مفرق حارة الموازين:

- هناك، تحت الحجارة. ينتظرنا منذ ثلاث سنوات.

في طريق العودة إلى الجلوم، مر طلال ثانية بالعجوز الحاج حمدي فرآه جالساً على عتبة داره المدمرة، يطعم قطة.

- كان عندنا عشرات القطط..

قال العجوز وهو يداعب رأس القطة الهزيل.

- الآن.. هذه آخر شاهدة على جرائمهم..

فكر طلال: حتى القطط ذبلت وهي تهجر زقاقاتها والأسطحة وعرجون الدالية. القطة نظرت إلى طلال نظرةً عرف منها أنها لن تعيش طويلاً.

من سور القلعة نظر طلال إلى الأسفل، وسار باتجاه قلب المدينة التي كانت تنام تحت غطاء من الظلام والدمار. لكن في زاوية صغيرة، رأى نور مصباح خافت يلمع من نوافذ متفرقة، من بينها نافذة قريبته الدكتورة لمى في عيادتها الإسعافية. تعوّد طلال أن يزورها هناك، وكان يرى في مناوبتها الليلية علامة صغيرة على أن الحياة رغم كل شيء تستمر.. رحبت الدكتورة لمى بقدومه، بينما كانت منشغلة بتضميد جروح طفلٍ لم يتجاوز الخامسة، شعر طلال بغصة في حلقه عندما لاحظ أن الصبي كان يخفي خلف ظهر الفتاة المرافقة ساقاً مبتورة ملفوفة بخرق متسخة.. وتذكر ما رآه في الصباح الباكر، بينما كان الضباب الكثيف يتسلل كغاز سام عبر شوارع حلب المحطمة، حيث وقف أمام مشهدٍ مزّق قلبه إرباً. طفلةٌ صغيرة بثياب ممزقة، تجلس القرفصاء على رصيفٍ تشقّق من قذائف الأمس، تلاعب دمية محشوة بالخرق. الدمية تفتقد عيناً، والطفلة

تفتقد حذاءً. عيناها الواسعتان، اللتان تشبهان بئرين عميقتين من الأسئلة، نظرتا إليه في صمت: "لماذا العالم كله يتسع إلا لنا ؟"

في صباح باكر سيخرج طلال للتريض الصباحي باتجاه القلعة، ويسير شوطاً حولها وهو يحصي شواهد الخراب الهاجعة في محيطها، كان ينتظر أن يحل موعده مع المقاولين والعمال، فتوقف أمام خان الشونة ناظراً إلى تلال الأنقاض التي تخفي تحتها جامع ومدرسة الخسروية، ومن خلفه تداعت أحجار مسجد السلطانية هي الأخرى، كما لو أن زلزالاً مدمراً أصابها. أذهله هذا الفراغ الذي لف المكان، فيما تحركت غربان تتقافز على بيادر الجوع، فانعطف عائداً وتوجه إلى سوق الزرب باتجاه باب أنطاكية، وسرعان ما لفت نظره اختفاء القوس الحجري من مدخل السوق.. حدث نفسه كما في كل مرة: "ها قد أصبحت الأماكن هنا في سوق المدينة الذي كان مسقوفاً ذكرى وغصة، ستمشي الآن باتجاه باب أنطاكية، في هذا السوق الممتد، المتوزع على عشرات الأسواق، ولن تنعم بالعتمة الأليفة، بل ستجد كيف أن شمس الله تسطع فوق رأسك، وعلى أطراف الممر الضيق للأسواق سترى كيف تكدست الحجارة على طرفي الطريق.. قد نأيت عن منظر خراب هناك لتمضي في قلب حياة كانت يوماً هنا."

كان سوق المدينة الشهير وحده طعنة في القلب، سوق العطارين صار أنقاضاً، والقذائف الخارقة الحارقة التهمت الأسواق الأخرى، وبقايا دكاكين سوق الصاغة والنسوان التي امتلأت بها الذاكرة، لم يبق منها سوى شظايا زجاجٍ وأتربة تحت الأقدام... حدث طلال نفسه بعبارات سيثبتها في سجل يومياته: "كل ما أراه وأحسه الآن تصورت ما هو أفظع منه وأمر، وقد أيقنت منذ الأيام الأولى لي في حلب أن عودتي لم تكن عبثاً، فقد عدت لأكون شاهداً على زمن صار التاريخ فيه يُكتب بألوان الدم والدموع. في حلب، حيث كل زاوية تحمل ذكرى، تعلمت أن الهوية ليست مجرد أرض أو ذهب، بل قصص تحكى، وعلاقات تروى، ووجوه تظل حية في القلوب."

[20]

في ضحى اليوم التالي، بينما كان طلال والعجوز أبو خالد يتناولان فطورهما في الليوان، سمعا باب المنصورية يقرع، نهض طلال سريعاً، وشق الباب ليرى وجه رجل غريب، شابٌ في الأربعينيات، بملابس وملامح مترفة..

- عمي طلال! أخيراً ألقاك! دلني المختار..

حدق طلال محاولاً تذكُّر وجهه. نظر إلى الابتسامة المرسومة محاولاً العثور على ملامح مألوفة في ذاكرته. السنوات الطويلة، والغياب، والتغيرات.. كلها حجبت الصورة. ثم تذكر فجأة صبياً رآه في صورة قديمة مع والده:

- رياض...؟
- نعم بالضبط! ابن عمك رياض الوزان..
- أهلاااااااً سيد رياض، أهلاً.. ذكرتني بأيام بعيدة، تفضل..

جالت عينا الزائر في أنحاء الدار، "ما شاء الله" رددها مرات، امتدح همة طلال في جعل الأوابد تستعيد حياتها الضائعة، "ولكن" قالها مع نبرة أسف، فيما قاده طلال إلى الليوان حيث العجوز يتابع طعامه..

- أبو خالد، سنديانة هذه الدار..

قالها طلال معرفاً، وأردف:

- تفضل سيد رياض، شاركنا الطعام..

رد رياض بكلمة "شكراً" سريعة، متجاوزاً الدعوة بالقول:

- هاجر والدي إلى البرازيل قبل أن أولد، لكن الدم ينادي، أليس كذلك؟ عدتُ منذ سنوات وأنا الآن تاجر عقارات هنا في حلب.. سمعتُ أنك عدت، وأنك

مشغول - حتى لا أقول متورط - بترميم الدار. فكرة رائعة! تثير الإعجاب حقاً. لكنْ!.. تريد الحقيقة، أنا سمعت عن الجلوم، وهذه أول مرة أراها، ضعت في حاراتها وأنقاضها، لولا أنهم دلوني على المختار، عرف من أكون ودلني على البيت، يعني.. تريد رأيي يا ابن العم، لم يعد هنا ما يغري بالعيش، هذه حارات تجاوزها الزمن، زمن جدي وجدك، وترميمها.. لا أدري إن كان مجدياً من أي ناحية شئت..

طلال ظل صامتاً يستمع بحذر، بينما توقف رياض برهة، ثم انحنى إلى الأمام قليلاً، وانخفض صوته ليأخذ نبرة الثقة، نبرة الرجل الذي يعرف كيف تدار الأمور:

- لكنْ... بيني وبينك، دعني أكون صريحاً معك. الواضح أن أعمال الترميم لم تنته، وإتمامها شاق ومكلف، لماذا لا نختصر الطريق ونحن نعلم أن هذه المنطقة... ستشهد تحولاً.. يعني نهضة عمرانية حديثة، فبيعُ الدار كاملة لشركة استثمارية كبرى - لديّ اتصالات مع بعضها - سيكون أجدى، وسيُحقق أرباحاً فورية تفوق أي حنين للماضي وذكريات ووجع قلب..

مد يده مصافحاً كفعل تاجر مخضرم، مد طلال يده بتكاسل، شد رياض عليها بحماسة مفرطة، لكن المصافحة ظلت باردة، جعلت طلالاً يشعر بتحفُّزٍ غريزي، من مشهد لا تنقصه الخفة والشطارة المصنوعة، فعرف أنه أمام صياد فرص غر، وردد في سره: "هذا الرجل ليس مجرد قريب عاد، بل عدو محتمل.." وعلى هذا رفع طلال عينيه نحوه مباشرة. لم تكن عيناه ضيقتين كعيني رياض، بل واسعتين، عميقتين، تحملان صبر السنين وثقل الذاكرة. رد وقد أدرك اللعبة..

- المنصورية ليست للبيع.

كانت جملته قصيرة، صلبة، كحجر كبير يسد طريقاً.

ارتبك رياض للحظة، وأفلت يد طلال، لكنه سرعان ما استعاد ابتسامته التكتيكية.

- طبعاً، طبعاً، أنا أفهم تعلقك. لكن الأمر ليس بيدك وحدك، أليس كذلك؟ هناك الورثة الآخرون... المصالح متشعبة.
- أعرف.. أنا سأشتري حصصهم.

قطع طلال كلام رياض بهدوء، لكن هذا الهدوء كان حازماً، كان إعلاناً لقرار. ساد صمت قصير. ابتلع رياض ريقه. شعور بالجفوة واليأس بدأ يتسلل إليه.. هذا الرجل لا يفهم قواعد اللعبة الحديثة. حاول التكيف، والانتقال إلى خطة بديلة، فانخفض صوته أكثر، وكاد أن يهمس، حتى تعذر على أبو خالد سماع شيء:

- طيب، اسمعني عمي طلال... لو أننا نتريث قليلاً، لا تتسرع. أنا لي علاقات. أستطيع التكلم مع مسؤولين في البلدية، في مؤسسات الإعمار... أضمن لك أن نكون نحن - كعائلة - أول المستفيدين عندما تبدأ مشاريع التطوير هنا. نؤسس شركة صغيرة، أنا أتولى الأمور الإدارية والتراخيص، وأنت... يمكنك أن تكون الشريك الممول أو المشرف. الفكرة والهدف أن نستبق الآخرين.

ظل طلالاً صامتاً، يفكر بكلمات يلقيها رياض من مثل: "نحن" و "شركة" و "مشاريع التطوير" محاولاً نسج خيوط شراكة قسرية، وإقحام نفسه في مشروع مفترض. ووجد رياض نفسه معلقاً في فراغ، مصغياً لصمته.. وفكر أن هذا النوع الغريب من الصمت لم يكن تفكيراً أو تردداً، بل كان جداراً عالياً، وحسماً لحديث بلا قيمة. وحقاً كان هذا واقع الحال، فمن ناحيته نظر طلال إلى رياض كما ينظر الإنسان إلى مشهد لا يعنيه، إذ كان انتباهه كله مركزاً على ذلك "الإقحام" الفجّ لشخص رياض في "مشروع الدار"، وكأن أرضها أصبحت فجأة "فرصة استثمارية" يطالب بحصته فيها، في حين أن مسألة الذاكرة بالتأكيد لم تخطر له على بال. وكل ما رسمه من صورة أنه مجرد ابن عم عائد من البرازيل، ويعرف مسؤولين، ومنفتح على الثراء بأي ثمن..

توقف رياض عن الكلام. لاحظ أن الكلمات تضيع في فراغ طلال المقصود. شعر بالإهانة والإحباط. لم يكن معتاداً على أن يُتجاهل بهذه الطريقة، خاصة من رجل قريب، لكنه بعيد في الوقت ذاته.

- كما تريد!

قالها بصوت عالٍ مفاجئ، مبتعداً عن نبرة الثقة، عائداً إلى سطحية العلاقة، بل ضمَّنها لمسة من التهديد المُقنَّع، وإشارة إلى أن الرفض سيكون له تبعات:

- لكن أنا نصحتك... الفرص لا تتكرر.

نهض. أدار ظهره ومشى نحو الباب. قبل أن يغادر، التفت للحظة، وألقى نظرة أخيرة على ركن الليوان، على العجوز الذي ظل يتابع طعامه بصمت، على طلال الذي نهض بحماس يشيعه نحو الخارج. كانت نظرة التاجر التي تقدر "المادة الأولية"، نظرة تقول: هذه الدار ستُباع يوماً ما، وسأكون هناك عندما يحين الوقت.

[21]

بينما كانت حارات الجلوم تستيقظ مع أولى خيوط الشمس، تتنفس رائحة الياسمين المتسلق على جدران البيوت القديمة، جلس طلال على أريكة الليوان، وراح يتأمل عذوبة الصباح في حضن الذكرى، ثم التفت إلى حجر كبير نصف دائري في صدر الليوان، حجر يأخذ شكل المقعد، ومن خلفه اكتسى الجدار بخلفية عالية على شكل محراب تناوبت فيه قطع المرمر اللماع بالأبيض والأسود مؤطرة بمكعبات حمر.. نهض طلال وتلمس نعومة المقعد الحجري، فيما خرج أبو خالد في تلك اللحظة من غرفته المقابلة، يحمل دلة قهوة فواحة..

- هذا الحجر كما قيل لي كان مقعد صباح فخري حين كان صبياً. كان يأتي كل خميس مع شيخه علي الدرويش، يتدرب على الموشحات والأدوار حتى الفجر، كان صوت الصبي صلباً كما لو أنه صيغ من حجارة الدار..

أمّن طلال بدهشة على كلماته، وهو يمسح بكفه على الحجر، كأنه يحاول استخراج الذاكرة من باطنه. ضحك العجوز دون مناسبة ظاهرة، وكشف عن أسنانه المفقودة قائلاً:

- ياللذكرى! كان يأتي إلينا فيما بعد، إلى حي قاضي عسكر، يحيي الأفراح حتى الصباح، فكنتُ أستمع إليه من شباك غرفتي هناك! ورفع يده وأشار إلى طابق علوي موجود في ذاكرته فحسب.

في الليل، بينما كان طلال يغفو ويصحو وجد نفسه متربعاً وسط شباك السلاملك المطل على الدار، ومن الداخل سمع صوتاً يأتي من طرف البركة. امرأة بثوب أسود، تجلس على الحافة، تبلل أصابعها بالماء وتهمس بكلمات غير مفهومة. أرهف أذنه، فسمع صوت أنثى رقيقاً يغني مقطعاً من موشح قديم:

"يا غصنَ نقا مكللاً بالذهب

أفديك من الردى بأمي وأبي"

- الست فضيلة؟
- مساء الخير طلال. هذه الدار لو تعلم بُنيت على أنغام. كل حجر فيها يُغنّي، لكن أحداً لا يسمع.

قالت بصوت يشبه حفيف أوراق الشجر الجافة. وأردفت:

- حتى صباح فخري نفسه نسيه الناس الآن.

نظر نحوها وأدرك لحظتها أنه في حلم.. لكنه استرسل..

- ست فضيلة.. ليست الأنغام تفعل السحر في الأسماع بل الأرواح التي تحضنها.

التفتت إليه فأشرق وجهها بشعاع خفي..

- أنت السحر الذي عاد قبل الفوات! هل تعرف لماذا سميت هذه الدار بالمنصورية؟

سألته بابتسامة عذبة.

- لأنها على اسم جدي، بالطبع.

ضحكت.

- لا.. على العكس، جدك تسمى باسمها..
- وهل كانت قبله؟
- قبله بكثير.. ليال عامرة كانت تقام هنا.. الشعراء كانوا يجتمعون في أمسيات حلبية، يلقون القصائد، ويوزعون الكلام كالذهب، والميزان كان يحكم بينهم..

- وكيف عرفتِ هذا؟
- ....

انتشله من غفوته صوت ريم وهي تقرع النافذة:

- سيد طلال أكيد أنت بحاجة إلى فنجان قهوة..

صحا وهو يرى الست وداد هي الأخرى تقبل من فتحة الدارين، تهلل وجهه وقال:

- نعم!. هو في وقته الآن!. جميل هذا الصباح، سنشرب القهوة الآن، وأنتِ يا ست وداد ستقرئين فنجاني.. حتى ذلك الحين سأحدثكما عما رأيت في المنام.. لقد زارتني الست فضيلة، ووجهت إليها سؤالاً، وريم قطعت هذا الحلم.. رأيتها تقف هناك في طرف البركة الشمالي.. وتحدثني...

سهرة الخميس في المنصورية باتت تنتظم كل أسبوع. تمتلئ البركة بماء البئر، ويزدان حوضها بجاط من الفواكه وآخر من الحلوى. الست وداد وأخريات يتناوبن في كل مرة على تقديم صحون الرز بالحليب أو المهلبية أو الحبوب.. يجلسن في ظل الليمونة وتأخذهن الأحاديث.. في الليوان، يجلس الرجال وسط متحف صغير حافل بعبق الماضي، فالزاوية تزينت بجهاز غرامافون أثري، مع أسطوانات قديمة، فوق طاولة مدثرة بشال عجمي. وعلى كرسي خيزران تربع عود الست وداد مع المزهر والرق، وداخل خزانة زجاجية علّقوا خنجرين نحاسيين متصالبين بجانب ميزان الذهب وبعض أنتيكات نحاسية، إلى جانب المكاحل وقماقم ماء الزهر..

يفد تباعاً معارف طلال من أهل الحي، ومن (شلة) مقهى السعد. أبو خالد العجوز يفاجئ الجميع اليوم بعزف منفرد على العود، حضن عود الست وداد كما لو أنه يحضن روحاً، دندن قليلاً، ثم بصوت عذب لا يتناسب مع شيخوخته راح يغني موشحاً قديماً:

ذات الوشاح لطفاً أدارت

بين الملاح شمساً أنارت

يهيم طلال بنداوة اللحن والصوت، ومن بعيد، من شبابيك المربع العلوي، تهيأ له أنه رأى ثانيةً ظلّ الست فضيلة يرقص مع الأنغام، وبيدها رفعت ما يشبه منديلاً ولوحت به.. انداحت الأطياف أمامه مختلطة بدخان النراجيل وعبق زهر الليمون والنرجس، ورفع نجواه إلى السماء الحالكة، وتعلق بغمرات من السعادة والوجد الشجي.. بعد قليل نهض فجلس على مقعد صباح فخري الحجري، ينظر إلى البركة والدالية، ويغلق عينيه على حلم ينوس، ولأول مرة منذ عودته، شعر بالاطمئنان وبصواب ما يفعل.. وقد صار هذا الحضن الأسبوعي مرفأ النجوى واللحن والطرب، فتطلع في قادم الأيام إلى إمكانية تحويل الدار إلى "بيت الأوتار"، كمركز للموسيقى التراثية والفنون الشعبية. طيف

الست فضيلة لم يظهر مجدداً، لكن العازفين يقسمون أنهم يسمعون صوت امرأة تغني معهم أحياناً عند الفجر.

المشهد الذي وقف طلال أمامه الآن في وقت الغروب لم يكن كأي مشهد. دار المنصورية التي كانت خراباً، أصبحت الآن تُنازع القلعةَ في جمالها. الليوان بجلاله، بزينته وقوسه المرتفع، بعموديه المرمريين النحيلين، النوافذ التي جُدّدَ خشبها، النقوش الحجرية الباذخة.. كل ذلك أضفى على الدار نبلاً وعراقة، بينما عادت البركة المثمنة لتُملأ بماء البئر، وشجرة الليمون أزهرت من جديد، بينما تسامقت الدالية صاعدة إلى عريشة فوق سطح القاعة القبلية، وتمايلت شتلة الفستق مع النسمات الرقراقة، بل حتى الحجارة نفسها بدت وكأنها تتنفس، فيما الفضاء الذي احتضن أشجار البيت راح يضج بنشيد العصافير... شعور بالرضا والانتصار يشيع في نفس طلال، وهو يتأمل ما آلت إليه الدار بعد عمل استمر شهوراً، أصبحت في نظره قديمة متجددة، الأمر الذي أحيا مشاعر تقادمت فبعثها لتحيا من جديد. لكنّ المدينة القديمة الخربة في أكثر من مكان لم تفارق قلبه، بل بقيت كظلّ أسى طويل يتبع خطواته حيثما حلّ. في قلبه، ما زالت حلب حية، تتنفس بين نفحات الماضي وترتجف في وجه مستقبل غير معلوم. تساءل في صمت، هل هي تلك المدينة التي عرفها أيام الطفولة، أم هي مدينة أخرى تشبهها في بعض ملامحها، لكنها لم تعد كما كانت؟ هل ستظل حلب تعاني من جراحها العميقة التي لا تندمل، أم ستشهد يوماً ميلاداً جديداً من رحم الدمار؟ هل سيعود أبناء الحارات إلى بيوتهم، إلى دكاكينهم، إلى أسواقهم، أم أن الركام الذي غطّى الأرض بات عائقاً لا يزول؟ وفي الغربة أساساً أين تكمن الحقيقة؟ هل هي في قصص الأهل التي تكررها الألسن، أم في صفحات التاريخ التي يكتبها الزمن بدماء وأحلامٍ مهشمة؟ صحيح أن الحنين قد شده وعاد، ولكنه أيقن أن الحنين لا يمكنه وحده أن يعيد بناء ما هُدّم، كما لا يمكن للذاكرة أن تكون وطناً حين ينعدم السلام في الواقع... وفي زحمة تداعياته برز هاجس من قلق وطفا على السطح، لقد عادت دار الجلوم إلى حضورها، لكن شيئاً واحداً بقي غائباً: الناس!. أهل

الحي ما زالوا ينظرون إليه كغريب، كتاجر ذهبٍ عاد ليجمع ما تبقى من أطلال، كمستثمر سياحي، رمم الدار ليجعلها قبلة للباحثين عن التاريخ، حتى الحاج أحمد، الذي ساعده في كل شيء، كان يحمل في عينيه سؤالاً: "هل سينجح مشروعك؟ هل ستصمد؟ أم ستهرب كالآخرين؟"

[23]

انقضت سهرة الخميس، واستسلمت المنصورية لهدوء ثقيل بعد صخب الضحكات وأخبار الأسبوع، رفع طلال يده بتحية المساء، واستدار ليدخل غرفته، لكن أبو خالد استوقفه، وقد بدا علية التردد الذي يعرفه طلال جيداً..

- سيدي بكير لسا على النوم، سأحدثك بأمر إذا تكرمت..

عاد طلال فجلس على حافة مقعد صباح فخري في صدر الليوان، مصغياً لما سيقوله أبو خالد، ولاحظ كيف اكتسى وجهه بقلق ظاهر بتأثير هم مقيم لا يستقر به قرار. لحظات من صمت وتردد تتخللها أنفاس مسموعة.

- أنا أسمعك يا أبو خالد.

تلكأ أبو خالد قليلاً كمن يحار كيف يبدأ، ثم رفع بصره إلى وجه طلال وكأنه يبحث عن طمأنينة قبل أن يغوص في قوله:

- يا سيدي، سأحدثك بأمر، إذا لم تجده مناسباً أرجو أن يظل الحديث بيننا... الست وداد، ابنة خالتي كما أعلمتك... يعني... لماذا لا يجمعنا الحلال؟! و...

فوجىء طلال بفحوى الحديث، واستقام في جلسته، طالباً من أبو خالد أن يكمل، لكن عينيه كانتا تبحثان في ملامح الرجل عن أمر آخر، ربما عن حقيقة طلبه. عاد أبوخالد فتنهد وكأنه يلفظ حملاً ثقيلاً:

- يعني نحن أحوج ما نكون لبعضنا، تحمل كبرتي وأحمل كبرتها، ولا سيما أن ابنتها ريم سيُطلق نصيبها عاجلاً أم آجلاً، وواحدنا لن يبقى له أحد في هذه الدنيا، هكذا شاءت الأقدار، وحرم كل منا من شريك حياته.. أنا رجل هدني العمر وأوجعتني المصائب، وهي امرأة، ماذا أقول! الحال من بعضه.. ما رأيك؟

امتدح طلال مباشرة ودون تلكؤ فكرة أبو خالد، وهو يرى في عينيه بريقاً لم يره من قبل:

- والله عين العقل ما تقول.. وإذا شئت، ودفعاً للحرج كلمتها أنا..
- ليتك تفعل يا سيد طلال، هذه خدمة العمر، والله أنا لا أعرف كيف أواجهها بمثل هذا الطلب.. يعني لا أستطيع، يعقد الخجل لساني..
- ما عليك، دعها لي..

نام طلال تلك الليلة وهو يقلب الأمر في رأسه، يتذكر الست وداد حين كانت تأتي بدلة القهوة مع فناجين ثلاث، أو حين كانت ترسل مع ريم طبق الكبة المشوية في مناسبات عابرة، أو حين كانت تقف على الفتحة بين الدارين لتسأل عن أبو خالد حين يمرض. رأى في عينيها دائماً ذلك الشرود الجميل، رأى في نظراتها ما يفوق المجاملات.

عصر اليوم التالي خطا طلال باتجاه الفتحة بين الدارين، وتوقف عند حدها، رافعاً صوته منادياً:

"ست وداد... ياست وداد..."

ظهرت وداد في الحال، تمسح يديها بمئزر المطبخ، تستطلع أمره بابتسامة خفيفة، فقال طلال بجرأة لا تنقصه:

- جارتي... لي طلب عندك، وإذا لم يكن الحديث من هنا مناسباً، سآتي لزيارتك من باب الدار.

فاجأته وداد بالرد الحاسم:

- يا سيدي، نحن بيتنا واحد، ولا جدار بيننا، أهلاً بك الآن وفي كل وقت.

اقترب طلال خطوة وقال بصوت منخفض كمن يبوح بسر:

- بصراحة.. بصراحة كنت سآتي ومعي أبو خالد، لكن شيئاً من حرج جعله يظل قابعاً هناك في غرفته.
- حرج من ماذا؟ بيني وبين أبو خالد لا يوجد تكليف.
- يا ستي.. هو حدثني بأمر، ووجدت كلامه عين الصواب، فما رأيك أنت؟!
- رأيي في ماذا؟
- في أن تعيشا تحت سقف واحد.

خفر البنات سرعان ما ظهر جلياً على وجه الست وداد، احمر خداها، وأدارت بصرها نحو الداخل، كأنها تبحث عن مخرج، فدارى طلال الموقف بقوله:

- في كل الأحوال لك أن تفكري بالأمر، وإن كنت أرى أن لا ضرورة للتفكير، أبو خالد تعرفينه، ولا حاجة لامتداحه.. لك الوقت الذي تشائين.. للتفكير..

ظلت وداد صامتة بشرود جميل، تتأمل قدميها ثم ترفع بصرها نحو السماء كمن يستشير الغيب، ما يوحي بالرضا والقبول.. علامات قرأها طلال مرسومة على وجهها، رغم محاولتها إخفاءها خلف ابتسامة تشي بسرور خفي.

- سيد طلال، الأمر ليس هيناً... بصراحة لقد فاجأتني، والأمر يحتاج .. يحتاج إلى تفكير فعلاً، ماذا أقول!
- بالطبع، لك أن تفكري.. وإن كنت أرى أن أبو خالد لاتنقصه أي خصلة حميدة، يعني أنا مقيم معه منذ أشهر، ووجدته قمة في الرقي والأخلاق..
- أكيد يا جار.. والله أبو خالد زينة الرجال...وإن شاء الله خير..

في تلك الليلة، لم تنم وداد. جلست على حافة سريرها، تتأمل صورة زوجها الراحل في الإطار الخشبي، تحدثت معه كأنه يسمع:

"يا أبا ريم، ماذا ترى؟ الرجل طيب، أعرفه منذ الصغر، وابن خالتي كما تعلم، وأخلاقه معروفة. لكن كيف لامرأة مثلي أن تبدأ من جديد؟ كيف أجمع بين ذكراك وحضور غريب؟"

سحبت الغطاء حتى ذقنها، تتذكر سنوات العزلة التي قضتها تربي ريم وحدها، سنوات الصمت حين كان الجيران يتحدثون بصوت خافت، سنوات الانتظار التي لم تكن تنتظر فيها أحداً. أغمضت عينيها، فرأت ما رأت، ثم صحت في أبكر الفجر، أعدت فنجان قهوتها، شربته بتمهل ثم قلبته على الطبق أمامها، وانتظرت ما سيقوله الفنجان!

بعدقليل، بينما كانت تعد الفطور، دخلت ريم المطبخ بوجه شاحب، وقفت خلف والدتها دون كلمة، ثم همست:

- سمعت... سمعت ما قاله عم طلال.

التفتت وداد إليها، تحسست وجهها بكفها:

- وما رأيك أنت يا ريم؟
- أمي، كوني على ثقة، أنا لن أكون عائقاً أمام سعادتك. لكن هل تفكرتِ كيف ستكون الحياة؟ أبو خالد رجل كبير كما تعرفين، وهو لا يزال يتذكر زوجته ويمسح دمعته كلما ذكر اسمها، فهل سيكون قادراً على تقبل فكرة أن تحل امرأة أخرى مكانها؟!

ابتسمت وداد بحزن، ووضعت يدها على كتف ريم:

- بل السؤال الحقيقي: هل أنا قادرة على أن أمنح رجلاً مثل أبو خالد ما يستحقه، أم أن سنين الوحدة جعلتني غير صالحة لحياة اثنين؟

أحنت ريم رأسها، ثم قالت بصوت خافت:

- أمي، أنتِ أكثر من صالحة، أنتِ من علمتني كيف أتجاوز أيام القهر والموت، سيكون هذا البيت أكثر امتلاءً وصوتاً، وأكثر دفئاً بوجود أبو خالد، وأكثر هدوءاً بعم طلال الذي يحب أن يرى الجميع سعداء.

احتضنت وداد ابنتها، وشعرت للمرة الأولى منذ سنوات أن القرار ليس مخيفاً، بل هو امتداد لحياة كانت تظن أنها انتهت.

بعد ثلاثة أيام، وفي وقت الغروب، عندما كانت أشعة الشمس الذهبية تتدلى على جدران المنصورية العتيقة، وقف طلال على الفتحة بين الدارين مرة أخرى، ورأى وداد تقف هناك كأنها كانت تنتظره، وفي يدها صحن من التمر، وابتسامة لم تكن موجودة في أيام سابقة.

قالت بصوت واضح:

- يا سيد طلال، قل لأبو خالد أن لا يرسل غيرك، ولتكن الزيارة رسمية في يوم الجمعة، مع الشهود إن شاء الله. ليكن يوم الكتاب والدخلة معاً.

ابتسم طلال ابتسامة عريضة، رفع يده بالتحية ثم وضعها على رأسه علامة الشكر، وكاد يرفع صوته بالتهليل، لكنه تمالك نفسه، واكتفى بقوله:

- والله يا ستي، لقد أعدتِ للحارة روحها التي كانت قد انطفأت.

استدار مسرعاً نحو الدار الأخرى، ودخل على أبو خالد الذي كان يجلس متحفزاً على طرف السرير ينتظر بفارغ الصبر، رأى طلال مقبلاً وطالع في وجهه ابتسامة تقول كل شيء حتى قبل أن ينطق.

قال طلال وهو يضع يده على كتفه:

- يوم الجمعة يا أبو خالد، يوم الجمعة .. الكتاب مع الدخلة مع، أعدد نفسك.

ارتسمت على وجه أبو خالد ابتسامة لم يعهدها أحد منذ سنوات، غادرت معها كل تلك التجاعيد التي خلفتها الأيام، بدا كما لو أنه أصغر عمراً بسنوات. نهض وعانق طلالاً وكادت عيناه تطفران بدمع أبلغ من أي كلام.

في صبيحة يوم الجمعة الموعود، استيقظت المنصورية على غير عادتها. كان الهواء نفسه يحمل رائحة مختلفة، شم عبيرها أبو خالد بلهفة بكر، أرسل أطعمة منوعة وفواكه وحلوى إلى بيت الست وداد، التي راحت منذ الصباح تعد نفسها للقاء أبو خالد، فيما راحت تتناهبها وتصطرع في داخلها مختلف المشاعر وأشدها تأثيراً في الروح. توافدت بعض النسوة إلى بيتها من المعارف والقريبات، وامتلأ الفناء الداخلي بأصوات الضحكات والهناهين، تخللتها زغاريد رأت وداد أن وقتها مضى، ورفعت يدها تومئ بالرفض والتأنيب.. وعصراً، دخل الشيخ الذي أحضره طلال من الجامع الكبير، وكانت وداد قد خصت طلالاً بأن يكون وكيلها في عقد القران، وهكذا جلس أبو خالد أمام طلال في فسحة دار الست وداد، ووضع يده في يده وبدأ الشيخ يلقن كلاً منهما، وشهد الواقعة أدهم والحاج أحمد وبعض رجال الحي. وقرئت الفاتحة تتبعها الأدعية ثم التبريكات والتهاني والأمنيات، فيما التمعت عينا أبو خالد ببهجة تشي بسر السعادة.

في الغرفة التي جمعت النسوة ثمة من التقطت كلمة (الفاتحة) وطارت بها إلى مجلسهن، فانطلقت الزغاريد هذه المرة مفاجئة الجميع، دون أن تتمكن وداد من منعها، وقد غمرتها القبلات والعناق..

انفض الرجال سريعاً، ووقف أبو خالد وطلال ينتظران خروج العروس إليهم، وفي لحظة من فرح، ظهرت الست وداد بلباس محتشم، يليق بمن قطعن عهد الصبا، تقدمت ثم وقفت في فسحة الدار، فيما تقدم أبو خالد،حيياً، ممتناً، شاكراً،وأمسك بيديها في

لحظة من البهجة الخالصة، فانطلقت زغاريد النسوة ثانية، وجعلت ابتسامة واحدة ترتسم على وجهيهما..

جاءت ريم حاملةً طبقاً صغيراً من الحلو العربي، وقدمت لهما قطعة وهي تقول بصوت مرتجف:

"هذه أول حلوى بينكما، لتحلو أيامكما، بارك الله لكما."

تناول أبو خالد القطعة، ورفع يده متمتماً بدعاء، ثم أطعم عروسه، ووضع نصف القطعة الآخر في فمه، في مشهد أطلق الفرح والأغاني..

أخيراً، خلد ابو خالد إلى عروسه، في دارها، ووقف طلال أمام شباك غرفته يتأمل القمر المكتمل في تلك الليلة، مرتاحاً للهدية التي قدمها للعروسين على شكل وعد بترميم دار الست وداد، لتكون وداره أجمل ما يزهو به حي الجلوم العريق. وابتسم لنفسه وهو يهمس:

"الحياة لا تنتهي بانتهاء الحب، بل تبدأ كلما اخترنا أن نمنح الفرصة مرة أخرى." ثم دخل غرفته ليخلد إلى النوم، وفي عقله صورة الحارة التي ستصبح بعد اليوم أكثر دفئاً، وأكثر امتلاءً، وأكثر شبهاً بما كانت عليه أيام شبابه، حين كانت البيوت تتنفس معاً، وتتشارك الأفراح، وتقتسم الأحزان.

بعد أسابيع، رتبت الست وداد بيتها على نحو مؤقت، منتظرة البدء بالترميم، بحيث أصبحت الغرفة الملاصقة لبيت أبو خالد من الطرف الآخر هي غرفة العائلة الجديدة، وجعلت لريم غرفة منفردة في المربع العلوي من بيتها. أما أبو خالد، فقد عادت إليه روحه التي غابت.. صار يضحك بصوت مرتفع، ويناقش طلالاً في أخبار الدنيا، ويمتدح طبيخ الست وداد كل يوم وكأنه يتذوقه لأول مرة، قائلاً:

- والله يا ست وداد، أنا نسيت طعم الأكل الطيب من زمان.

وتضحك وداد بصوت تخفيه خلف يدها، وتهمس في نفسها:

"الحمد لله الذي رد إليّ الحياة بعدما ظننتها رحلت."

[24]

في مقهى السعد، راحت أصابع رياض الوزان تدق بقلق على رخام الطاولة البارد، فيما كانت رائحة الهال الدافئة تتصاعد من الفناجين الصغيرة.

- ... عمي طلال، لماذا تُصرّ على التعلق بذيول الماضي؟! الدار لا تساوي شيئاً أمام العرض الذي جلبته لك..

مد إليه ورقة فيها عقد شراء من فندق فرنسي.. طلال أمسك الورقة بهدوء وأبعدها جانباً.. ودون أن ينظر في مضمونها، قال:

- رياض.. لا تظن أن كل شيء يُشترى بالمال... لو أن المال كان همي الأكبر، صدقني لما عدت."

قالها طلال وعيناه ثابتتان على عيني رياض. في حين أشاح رياض بيده بسوء أدب، كمن ينفض غباراً عن بدلة ثمينة، فأدرك طلال في الحال أن المعركة لم تعد مع رياض أو الورثة، إنها معركة ضدّ نسيانٍ يريد ابتلاع المدينة كلها، بل إن المعركة لم تعد مع ورثة جشعين، بل مع رياح عاتية تريد اقتلاع جذور راسخة من حناجر أبنائها، ودفنها تحت أبراج من زجاج وحديد.

كان طلال على موعد مع أبو خالد الذي سيخرج من بيت الست وداد للمرة الأولى بعد زواجه، في الصباح قال لطلال:

- نلتقي في المقهى ظهراً، لك عندي مفاجأة..

فكر طلال فيما ستكون، محاولاً صرف النظر عن عرض رياض.. في تلك اللحظة، دخل أبو خالد المقهى، يرافقه رجل بثوب وشملة ولحية خفيفة بيضاء. توجه إلى طلال مزهواً.

- أعرفك بالأستاذ... الحاج حسن حفار، كبير منشدي حلب، وفنان الموشحات والقدود، وآخر من بقي من الأصوات الحلبية الأصيلة!

قال أبو خالد بفخر، كمن يقدم كنزاً ثميناً وشاهداً على زمن.

نهض طلال مرحباً بالحفار، وأبدى فائق سروره بمعرفته عياناً لا بالسمع فحسب.. بينما ظل رياض ينظر بحياد إلى الحفار دون أن يبدي أي اكتراث..

بعد تعارف وحديث ود، أبو خالد وضع يده على كتف الحفار ملتمساً شيئاً من جوده:

- السيد طلال ذواقة، يعجبك، وأنت يا أبو ديبو معروف بالجود والسخاء، هات أتحفنا.. وصلة صغيرة إذا تكرمت..

أبدى الحفار شيئاً من الحرج، فلم يسبق له أن غنى في مقهى، لكن إلحاح أبو خالد جعله يتطامن ويستجيب، كرمى لعيني السيد طلال وترحيباً به في حلب.

حامل الرق المصاحب للحفار بدأ برش نقرات موقّعة، انتظر الحفار برهة، ثم أغمض عينيه وكأنه يستدعي أرواحاً من طيب الماضي، وأجاب العازف بعد قليل بغناء موال بصوته الواثق الجذاب، ثم عاد منتقلاً إلى مقام آخر كساحر ومعلم.. الغناء لم يكن عادياً، بل كان كحزّ إزميل ماهر على رخام التاريخ، ينحت كلمات موشح قديم في فضاء المقهى..

أحن شوقاً إلى ديار رأيت فيها جمال سلمى

صوته الجهوري كان عريضاً، ناصعاً وعميقاً، صمت المقهى بأكمله. لاعبو المحبوسة توقفوا عن رمي الزهر، أصوات فناجين القهوة المرة هي الأخرى توقفت، حتى دخان النراجيل علق في الهواء كبخور مقدس، وحدها أصوات التطييب انداحت بالعرفان.. لكن رياض وحده من بدا شارداً ينقل ناظره ما بين الورقة المرفوضة على الطاولة ووجه

طلال الطافح بالتأثر والفرح، شعر فجأة بأنه غريب عن المكان، غريب عن تلك النغمة التي تتغلغل في الجدران كجذور شجرة معمرة. نهض فجأة، كمن يستيقظ من حلم مزعج.. وبحركة فم ممتعضة، انسحب من المقهى دون كلمة وداع، وخطواته الصامتة على البلاط العتيق كانت كمسح ذاكرة مؤقت. الباب اللواح أُغلق خلفه بهدوء، فاصلاً بين عالمين: عالم الذاكرة المتجسدة في الصوت والحجر، وعالم النسيان السائر نحو الفراغ.

نظر طلال من الزجاج إلى الشارع متابعاً خطوات رياض المبتعدة، ثم التفت إلى الحاج الحفار مبتسماً، وهمس في سره: "لا يمكن لرياح النسيان أن تبتلع الأصالة، والخرابة التي رممتها لم تكن جدراناً فحسب، بل هي قبّة صوت ومحفل نغم.." في تلك اللحظات كان صوت الحفار يصدح بـ:

يا ساكنين بقلبي لا عدمت لكم

معنى لطيفاً سرى معناه ضمن دمي

ويا رفارف روحي في معارجها

بذكركم قد يداوى في الهوى سقمي

هام طلال بالكلمات والنغم، وحدّث نفسه: "سقم الروح لا يكون إلا بانطفاء الذكرى بعد رحيل يطوي صفحات من حياة ومعنى إلى الأبد.." ثم التفت إلى أبو خالد مبتسماً يرسل من عينيه نجوى تبارك النعمة التي جمعته بالست وداد.

[25]

في الصباح الباكر، بينما كان ضوء الفجر يتسلل عبر نوافذ الغرفة، أيقظ طلالاً صياح ديك يتردد من دار قريبة، رده الصوت وهو يشق سكون الصباح لصباحات بعيدة، ضائعة، لأيام كانت الشمس تشرق فيها على حلب، كاملة غير مجروحة.. استسلم لصحوة قصيرة، تلك اللحظة الغامضة بين النوم واليقظة، ثم امتدت يده إلى جواله، ووجد نفسه يحدق في شاشته.. رسالة من لورا.. لمعت كالنبأ الذي قلب عالمه رأساً على عقب:

"أبي العزيز...

لا تفهمنا خطأً. نحن لا نغضب لأنك تركتنا، بل لأنك لم تصحبنا معك. هل تعتقد أن حلب ليست جزءاً منا أيضاً؟ نحن هنا في البرازيل، نعيش بين جدران تحكي قصصاً لا نعرفها، ونرى وجوهاً لم نألفها، ونأكل طعاماً لا لذة فيه ما لم تكن بيننا، عندما غادرتَ لم تترك وراءك منزلاً فحسب، بل تركت فراغاً في قلوبنا. ألا تعلم أن الجذور التي تبحث عنها في حلب، تمتد أيضاً إلى هنا، إلى قلوبنا؟"

أحسّ طلال بثقل مفاجئ، كأن حجارة المنصورية كلها قد استقرت فوق صدره. جلس على حافة السرير، يقرأ الرسالة مرة تلو الأخرى. كل هذه السنوات، ظن أن العودة هي قرار فردي، نزوة حنين لرجل اقترب من نهاية العمر، لكن كلمات لورا فتحت عينيه على حقيقة كان يغفل عنها طوال الوقت: جذور العائلة لم تُقطع أبداً، فقط ابتعدت، وتشعبت، وانتظرت من يعيد ربطها. كان يعتقد أنه يحمل الذاكرة نيابة عنهم جميعاً، بينما كان في الواقع يسرق منهم حقهم في أن يكونوا شركاء فيها.

استرسل طلال في تداعياته، ثم نهض بتثاقل، مشى نحو النافذة، نظر إلى الفناء الداخلي، إلى الزهو الأصيل الذي عاد للدار، إلى النافورة التي صارت تغرد بالماء بعد سنوات من الصمت، إلى الدالية المتسلقة على الجدار والتي بدأت تحمل عناقيد صغيرة،

إلى شتلة الفستق الواعدة... قرر في تلك اللحظة أن يفعل شيئاً لم يخطط له من قبل. ارتسمت في خياله صورة لمشروع ينبض بوحي الذاكرة والتراث وسيرة الحجر، قرر إعلان الدار رسمياً "بيتاً للذاكرة الحلبية"، ووجد في العنوان شمولاً أكبر من مجرد "بيت الأوتار". استقر القرار في رأسه، ظل هاجسه طوال النهار... في اليوم التالي رأى ضرورة إعلانه على الملأ، في حفل تأسيسي يطلق البادرة.. طالع في جواله أرقاماً عديدة، فدعا للحضور فريق الترميم، والدكتورة مروة، المؤرخة التراثية التي وجدت في الدار كنزاً من الذاكرة الحية، والمحامية سلاف التي خبرت كيف تتعامل مع تعقيدات النظام، وأدهم الشاب العاشق للتراث والأوابد، والسيدة وداد وريم اللتين تحولتا من جارتين إلى حارستين لأسرار الدار، وأبو خالد الذي صار نزيل الدارين بعد اقترانه بالست وداد، وبعض أهالي الحي، وعلى رأسهم المدعو سهيل والمختار، فما أقدم عليه لن يكون سراً، وفكر في دعوة رياض وتردد، لكنه استجاب أخيراً لحسن النية وصلة القرابة.. دعاهم للحضور لشأن هام.. وعصراً التأم شمل الجميع في صحن الدار، ووقف طلال في وسط الليوان ونظر إلى الوجوه التي أصبحت - كما حَلُم - تشكل عائلته الجديدة. تنهد بارتياح ثم قال بصوت عميق ملأ فضاء المنصورية:

- أصدقائي... اليوم نلتقي لنحيي ما حسبنا أنه باد واندثر، ربما كنت أسير حنين طاغ وأمل في إحياء نشيد الروح.. ظننت أن هذه الرحلة هي رحلتي وحدي. اعتقدت أن الحنين هو حنيني الخاص، لكني أكتشف اليوم أن الجذور لا تنتمي إلى فرد واحد، وأن الذاكرة لا يمكن أن تكون ملكاً خاصاً. لقد قررت أن أفعل شيئاً لم أخطط له من قبل. هذه الدار...

أشار بيده إلى الأعمدة والأقواس التي استعادت رونقها.. نظر إلى الوجوه من حوله، التقط الالتماعة في الأعين، والفضول والأمل، وابتسمت الدكتورة مروة وهي تتشرب كلماته بارتياح، بينما كان رياض يقف منفرداً منقلاً نظراته بين الحاضرين...

- هذه الدار ليست ملكي وحدي. هي ذاكرة كل من عاش هنا، وكل من يحلم بالعودة، من اليوم، ستكون "دار الذاكرة الحلبية" مكتبة للمخطوطات، متحفاً صغيراً للتراث الحلبي، ومدرسة لتعليم الموسيقا العربية والحرف التقليدية. نحن هنا ومعكم سنحرس الذاكرة كما تحرس القلعةُ المدينة.

تقدمت ريم خطوة إلى الأمام:

- لكن كيف سندير كل هذا؟

ابتسم طلال:

- سنديره معاً. أنتم لستم عمالاً ولا مساعدين، أنتم شركاء في هذه الذاكرة. أبو خالد صار شيئاً من عراقة الماضي، وراوياً لموسوعة الأسدي ابن الجلوم. أما حرمه المصون الست وداد فستكون أم هذه الدار، وستعلمكم أسرار الطهو الحلبي، وأنت يا ريم ستساعدين في الأرشيف والمخطوطات، والدكتورة مروة سترسم خرائط الذاكرة وتوثق الحكايات، إضافة إلى عملها كمسعفة للمرضى. وأدهم دليلنا التاريخي للتراث.. وأما ضيفنا وجار الرضا سهيل...

توقف لحظة، نظر إليه، تبادلا نظرة شك وحذر

- سهيل سيكون حارس أسرارنا، لأنه يعرف أكثر منا عن قسوة الحرب وأهمية الحفاظ على ما تبقى. وأرجو أن يساعدنا عن طريق معارفه في الحزب ومجلس الشعب في الحصول على ترخيص نظامي لمشروعنا.. هذه خدمة لحلب يا أخي سهيل..

ابتسم سهيل ورفع يده إلى رأسه دلالة على الترحيب والاستجابة، لكن المفاجأة الحقيقية كانت عندما وقعت عين طلال على رياض، كان وجهه يرسم ملامح أخرى غير تلك التي

على الوجوه. نظر طلال صوبه كما لو أنه يستفهم عن رأيه.. في تلك اللحظات نهض رياض وتحرك من مكانه بخطوات ثقيلة.

بادر طلال:

- سيد رياض، ما رأيك بالمشروع، يهمني رأيك!
- سمعت ما قلته يا ابن العم..

تابع بصوت خفيض:

- ولسنوات، كنت ومازلت أعتقد أن الذاكرة هي للضعفاء، وأن الماضي يجب أن يُنسى ليبدأ المستقبل.

استدارت جميع الرؤوس بشكل انعكاسي نحو هذا الصوت الجريء المتحدي في لحظة من عدم التصديق، وساد صمت شامل، قطعه طلال برد واثق:

- لك الحرية في ما تعتقد، لكننا هنا أصحاب مشروع، ولك أن تكون فيه أو خارجه.

استدار رياض ليكون بمواجهة طلال تماماً، رداً على تلميحه بالطرد، نظر إلى الحضور واحداً تلو الآخر، ثم رفع ذراعه عالياً بحركة وداعٍ وزهدٍ في كل ما يراه، ثم توجه بخطوات بطيئة إلى باب الدار.. نهض سهيل وتبعه كما لو أنه يسترضيه، وراح يحدثه بهمس وهما يغادران ويختفيان خارج الدار.

- ما يفعله هذا الرجل جنون! على الأقل لو أنه فكر أين يعيش! هنا.. في سوريا.

قال رياض، ورد سهيل:

- على كل حال أنا مكلف بتقديم تقرير.

- اذكر كل تفصيل رأيته اليوم.. لا تهمل شيئاً، حتى أسماء الحضور أريدها، أو من عرفت منهم.
- هل ترافقني إلى أمن الدولة؟ يجب أن نضعهم في الصورة فقط.
- بالتأكيد سنذهب معاً، اكتب تقريرك أنت، وأنا سأحدد موعداً لمقابلة السيد العميد.. أنا وصلت إلى قرار..
- ما هو؟
- هذا الرجل كتب اليوم نهايته بنفسه.
- تقصد التجمعات في بيته؟
- وفي مقهى السعد والملاخانة ومقهى الفرافرة في سوق الزهراوي.. نحن نرصد تحركاته في الحي وخارجه..

ثم ضحك بسخرية مضيفاً:

- هو يطالبك بمساعدته في ترخيص دار الذاكرة الحلبية.. تمام! على كل حال أريد أن تذكر كل التفاصيل في تقريرك عن حفل اليوم..
- سيكون جاهزاً.. نلتقي.

في المساء، بينما كان الجميع قد غادر المنصورية، بقي طلال جالساً في الليوان، يتناول قهوته مع الدكتورة مروة، تنفس بعمق معبراً عن ارتياحه بإقدامه على هذه الخطوة اليوم، خطوة رآها تكلل جهوده وأحلامه، لكن الدكتورة مروة نبهته إلى سلوك قريبه اليوم، اقتربت منه، صوتها يحمل همساً من القلق:

- طلال، هل أنت متأكد من صواب هذا القرار.. يعني الآن؟ رياض... وسهيل... أنا أعرف نظرات مثل هذه، وأنت شاهدتَ كيف انسحبا!

نظر إليها طلال، وإحساس حقيقي بالقلق يداهمه، بيد أنه ارتد إلى مشاعره الواثقة:

- مروة، لقد هربت طوال حياتي، هربت من الذاكرة بعيداً، هربت من المواجهة بالصمت، واليوم فتحت نافذة على أحلامي، قررت أن أتوقف عن الهرب.
- لكنهم قد يغلقون الدار. أو ربما يقدمون على ما هو أسوأ...
- لو أغلقوا الدار، ستكون ذكرى أيضاً. وستكون ذكرى تستحق أن تُحفظ.

رفعت مروة يديها مستسلمة، لكن في عينيها إعجاب لا تخفيه.

- إذاً سنكون معك. كلنا.

ابتسم طلال، وشعر بالدفء يغمر قلبه للمرة الأولى منذ قرأ بالأمس رسالة لورا..

في صباح اليوم التالي، كان طلال يقف عند باب الدار المفتوح، ينظر بحبور إلى تلاميذ المدرسة المجاورة وهم يدخلون الدار مع معلمهم أدهم، في رحلة مدرسية لزيارة "دار الذاكرة الحلبية". أدهم، الذي أخذ دوره كمرشد سياحي، كان يعرّف:

- هذه الدار عمرها أكثر من مئتي عام، وأصبحت الآن مركزاً لإحياء التراث اللامادي ضد كل محاولات طمس هوية حلب...

وبينما راح يشرح للطلبة ماذا يعني بالتراث اللامادي، جلس طلال مع أبو خالد ينسقان لتحويل بعض مقتنيات الدار إلى متحف صوتي. المحامية سلاف التي أصبحت موكلة بأي قضايا تخص السيد طلال، كانت تناقش مع مسؤولَيْنِ من اليونسكو حضرا منذ قليل إدراج الدار على لائحة التراث العالمي. أما ريم، فقد ملأت إبريق توتياء بالماء وأخذت تسقي الزروع والدالية بحركات بطيئة متأملة. بينما انشغلت وداد بإعداد المائدة بطعام فطور "يبيض الوجه" احتفاءً بالأضياف...

في المساء، بينما كان طلال يفكر بالعودة المؤقتة إلى البرازيل لإحضار عائلته، سمع صوتاً يتردد من بعيد مترنماً بموشح قديم يغنيه صباح فخري. أغلق حقيبته، وعاد إلى الليوان، وجلس يستمع. في تلك اللحظة، أدرك شيئاً مهماً: لم يكن هو من يعيد إحياء الذاكرة،

الذاكرة كانت حية طوال الوقت، تنبض في قلوب الناس، تتنفس في أغانيهم، تظهر في مآكلهم، تختفي في زوايا بيوتهم وتظهر في مناسباتهم. كل ما فعله هو أنه أعطاها مكاناً تجتمع فيه، صوتاً يعلو. ربما سيواجه مشاكل مع النظام. ربما سيتحداه رياض أكثر. ربما ستكون الطريق أمامه صعبة. لكنه كان يعرف الآن أن الذاكرة أقوى من كل هذا. لأنها ليست حجراً يبلى، ولا وثيقة تُمزق، ولا بيتاً يُهدم. الذاكرة هي النبض المستمر لقلب الشعب، واللحن الذي لا ينكسر حتى عندما تصمت الأصوات.

أغلق عينيه، واستمع إلى الموشح الذي راح يملأ الليل الحلبي، حيث بدأت حلب تروي نفسها بنفسها، قصة تلو الأخرى، ذكرى تلو الأخرى، جيلاً بعد جيل.

[26]

عُرف رياض الوزان في المدينة من أولئك التجار الذين أصابوا ثروة هائلة في زمن قصير نسبياً، وخلال سنوات الحرب تحديداً، بفضل علاقات واسعة وأذرع ممتدة إلى كل مفاصل الدولة، أما ما كان يزاوله من عمل فقد ظل لغزاً محيراً لأقرب المقربين إليه، زوجته وأصدقائه ومسؤولي الدولة، حتى تندر بعضهم وسموه بـ(القبان) بدل وزان، لثقل ما كان في حوزته من أموال وأملاك، وما أحرزه من وساطات تجارية غامضة.. علاقاته بمعظمها لم تكن مع وزارات الدولة ومديرياتها، بل مع الأفرع الأمنية التي تتبع لها هذه الوزارات والمديريات.. وبمجرد وصول السيد طلال الوزان إلى مطار دمشق، بصفة سوري يحمل الجنسية البرازيلية، تم إخطار الفروع الأمنية من قبل المسؤول الأمني في دائرة الهجرة والجوازات التابعة للمطار، وتمت معرفة الوجهة التي قصدها من اليوم الأول، عندما بات ليلته الأولى في فندق سميراميس في حلب. أُلحِقت مهمة المراقبة والتقصي بفرع أمن الدولة هناك، وسرعان ما استدعى العميد رئيس الفرع - وقد لفته اسم العائلة - عميله ورفيق السهرات الحمراء رياض الوزان، وكلفه بمهمة إضافية هذه المرة تنص على مراقبة قريبه طلال، الذي حل حديثاً في المدينة، وتزويده بتقارير دورية عن تحركاته وأعماله.

بعد شهور من وصول طلال إلى حلب طلب العميد من رياض تشديد المراقبة، خاصة بعد حادثة توقيف المدعو طلال بتهمة "المخالفات الأمنية"، مع التأكيد على إحصاء كل شاردة وواردة في علاقاته ومصدر أمواله المصروفة بسخاء في أعمال الترميم ومهمات أخرى لازالت مبهمة. وتم الاتصال مع مختار الحي ليكون الموضوع في عهدته أيضاً.. واليوم يلتقي رياض بالعميد بصحبة سهيل، ليقدم له التقرير المفصل عن نشاط طلال المرصود في المنصورية في آخر نسخة من نشاطاته: تأسيس دار الذاكرة الحلبية. رياض يسأل ضاحكاً:

- سيدي هل لي أن أسأل عن المكافأة؟

يرد العميد:

- لا!.. هذه المرة نحن من سيطالبك بالمكافأة..
- كيف؟!
- ألا يهمك أن تكون مالك المنصورية؟!

- بالطبع.. أنا على فكرة أحد الورثة، لكن طلال تجاهلني تماماً، وربما يلقي لي في المستقبل ببعض الفلوس كترضية..
- هذا إذا كان له مستقبل في هذه المدينة..

نظر بثبات في عيني رياض وأضاف:

- يعني.. الملف تقريباً اكتمل.

في هذه اللحظات، وداخل المنصورية كان طلال يهيم في واد آخر، إذ أخذ يتصفح الملفات واحداً تلو الآخر. في كل ملف كانت هناك قصة تنتظر من يرويها.. أبو خالد يجالس شيخوخته هناك في ركن الليوان، وداد على كرسي خيزران بدأت تعزف على عودها موشحاً حلبياً قديماً، انضم إليها الحاضرون في الغناء، وامتلأ الصحن بعد قليل بأصوات تختلط بين الشيب والشباب، بين الماضي والحاضر.

أنهى طلال إفراغ الملفات والتعرف إلى محتوياتها، وانتبه إلى الحركة الدائبة من حوله: الدكتورة مروة تفرز الصور، وسلاف تنظم الوثائق، ريم تستمع إلى بعض أبناء الحي وتتعرف إلى حكاياهم عن الحرب والدماء، وأدهم ينظم الكتب والمخطوطات على رفوف الكتبية، أبو عدنان يعد نرجيلته، فيما كان الحاج أحمد يشرح ممَ يتألف اللباس العربي، ثم يروي حكايات الحي القديم لمن التف حوله يستمع بشغف.. وأدرك طلال أن هذه اللحظة التي انتظرها طوال عمره ليست لحظة العودة الفردية، بل لحظة اللقاء الجماعي.. فأخرج هاتفه وكتب رداً على رسالة لورا:

"ابنتي العزيزة... لقد كنت مخطئاً. حلب ليست ملكي وحدي، وهي ليست ذاكرة الماضي فقط. إنها حاضرنا والآتي معاً. تعالي أنت وإخوتك، لنبني ذاكرة فاعلة. الجذور التي تبحثون عنها في قلوبكم، تمتد أيضاً إلى هنا، إلى تراب بادلنا الحب، للجذور حياتها، تموت هناك لتعيش هنا."

وفي ليلة الخميس تلك، بينما كانت النجوم تتلألأ فوق سماء حلب، بدا وكأن المنصورية راحت تضيء.. ليس فقط الحي القديم، بل قلوب كل من يحملون المدينة في داخلهم، أينما كانوا. الذاكرة لم تكن عبئاً يحمله فرد، بل جسراً يربط بين القلوب، وبين الأجيال، وبين الماضي والمستقبل. وحلب، التي ظن الكثيرون أنها ماتت، كانت تثبت مرة أخرى أنها لا تموت، لأنها تعيش في قلوب أبنائها قبل أن تعيش في حجارتها... لولا دخول سهيل مع رياض في هذه اللحظة ذاتها إلى غرفة العميد وإخطاره بما حصل.

[27]

في خميس تال، وفي ليلة مقمرة، امتلأ صحن الدار بأهل الحي، احتفت الدار بوافدين جدد، فتدفقت مياه النافورة وملأت البركة حتى حافتها، دارت كؤوس الشاي بين الحاضرين، بينما كان الأستاذ أبو خالد قد أحضر عود زوجته الست وداد وأصلح دوزانه طيلة دقائق، ثم أخذ يعزف عليه برشاقة جعلت ريم ترقص على النغم الشجي، وبعض المولعين بالطرب غنوا موشحاً قديماً، تردد رجعه في فضاء الحي كله.. طلال جلس في الليوان على مقعد صباح فخري ينظر إلى الحاضرين بابتهاج. شعر في تلك اللحظات أن الميزان قد استوى أخيراً، ليس بين الذهب والتراب، بل بين الماضي والمستقبل. أما الست فضيلة فقد ظهرت لثوان معدودة مطلة من أحد شبابيك القاعة القبلية، وكأنها تبتسم، ثم ذابت في العتم، تاركةً وراءها عبق ياسمين وراحةً غريبة في قلب طلال، كأن جرحاً قد اندمل أخيراً. وشيء ما جعل طلالاً ينهض ويخطو خطوات في أنحاء الدار، كان كمن يقلب صفحات ذكريات قديمة ترفض النسيان. وقف تحت الدالية العجوز التي عادت فتصابت، عبّ من نسمات المساء بارتياح عجيب. في تلك اللحظة رن منبه جواله بإشعار رسالة، فتحه، طارت عيناه إلى المرسل، وأدهشه اسم أخيه الأصغر فوزي الوزان، الذي هاجر إلى الأرجنتين قبل أربعين عاماً، واستقر في (ريو دي جانيرو)، يرسل من خط داخل سوريا..

أخي العزيز، عندما غادرت حلب، ظننت أنني أترك ورائي مجرد حجارة. لكن السنوات علمتني أن الحجارة تحمل الروح مثلما يحمل الجسد العظام.. أنا قادم!

ظل فوزي، الأخ الأصغر، وليف زمن غار في البعد، تداعت الصور حالاً في رأس طلال، تحضنها نشوة حاضرة، حدّث نفسه عن صباح لا يُنسى، قفز وحده إلى رأسه: أذكر.. في صباح ناصع ينتشلنا جدي منصور - أنا وأخي فوزي - من فراش الدفء، تعد أمي طعام فطور في صرة، نسير خلفه نتقافز في حارات الجلوم المفضية إلى العقبة، نعرف وجهتنا منذ ليلة أمس، إلى المشتل (الحديقة العامة)، ننام على حلم كبير.. من هناك، من أعالي

حي العقبة، نطل على مشهد سيظل يحفر عميقاً في الذاكرة، يقول جدي إنه الطوفان، طوفان قويق، في أول الربيع، صوت الجريان الهادر يصلنا، يملأ الأجواء، النهر يتلوى ويركض، يسأل فوزي إن كان أحد يستطيع أن يسبقه، ننحدر نحوه، ننضم إلى زحام البشر المتكدسين على ضفتيه، نعبر الجسر قرب حارة (العِينِين)، نسمعهم يتحدثون عن غرق الأقبية في حي محطة بغداد، سيارات إطفاء مسرعة تنطلق إلى هناك لنزح الماء.. لحظتها.. ننغمس بشعور آسر من خصب وبلل، من صباح آخر لم نعرفه يوماً.. نسير باتجاه المشتل، أشجار الربيع تتوشح بزهر ملون، ماء النهر يترقرق مسرعاً قريباً من أيدينا الصغيرة، نلاحق فراشات تقودنا خلفها باتجاه النهر، نتوقف، يشغلنا الطوفان عن اللعب، يفتح جدي صرة الطعام، ننشغل عن الطعام والطوفان بعرض الفرقة النحاسية تحت المظلة الموسيقية وسط الحديقة.. تتكرر هذه النزهات الصباحية كل جمعة.. حتى يحل الرحيل.. فنغادر حلب، وتنطوي صفحة من عمر زمن مضى، من أعمارنا، لكن الصفحة ذاتها ستظل مفتوحة على صور مصقولة بحنين ناعم يهرب من حاضر خشن...

ياللذكريات!. قال في نفسه، واحتقنت عيناه بالدموع، فرفع وجهه نحو نجوم السماء الصافية، وكأنه يبحث عن وليف في وميضها. ود لو شاركه جميع من في السهرة فرحته.. خط سريعاً العنوان بالتفصيل وأرسله، توقع وصول فوزي قريباً، وظل في اليوم التالي ينتظر مستثاراً حتى المساء.. فجأة، سمع صوت محرك سيارة يتوقف في الساحة قرب الدار، خرج إلى الساحة.. كان الرجل الذي نزل من السيارة يحمل في ملامحه خريطة من التجاعيد تشبه تلك التي على وجه طلال، لكنها أعمق، كأنها نحتت بيد الزمن بقسوة أكبر. وقف الشقيقان يتأملان بعضهما بصمت ثقيل تحت ضوء شاحب.

- فوزي!

همس طلال.

- كم مرت السنين يا أخي!

أجاب فوزي بصوت أجش، ثم أضاف:

- كأني في حلم.. يا أخي! حتى الحجارة هنا تبدو كأنها تنبض بالشوق.

تعانقا في لحظة خصوصية حميمة، ودخلا الدار معاً، كل خطوة لفوزي كانت تحمل ذكريات جديدة. توقف عند البركة، غمغم:

- هنا كنت أسقط لعبتي الخشبية فتغضب أمي.

ثم نظر إلى الليوان..

- وهنا كان أبي يقرأ الجريدة كل صباح.

طلال شعر بالغصة في حلقه.

- ما الذي ذكرك فعدتَ؟

ربت فوزي على الجدار بجانبه..

- لأنني سمعت أن الحجارة هنا بدأت تتكلم من جديد. وإذا شئت.. علمت بعودتك فعدت.

ظهر أبو خالد في الليوان، يستطلع مَنْ الزائر الجديد..

- أخي فوزي.. بعد غياب أكثر من نصف قرن..

عرَّف طلال، أمعن العجوز النظر في وجه فوزي، رحّب وأضاف:

- نعم الهوية لا تخطئ، ولعله الأصغر.."

رد طلال:

- صحيح أنا أصبحت أخاك في السن، وهو أخي في النسب..

بعد قليل دارت أحاديث مع فناجين قهوة بالهال، قدمتها الست وداد محتفية بالزائر الجديد..

- تذوق يا أخي هذه القهوة، وقل بماذا تذكرك؟

احتسى فوزي رشفة ونظر بعرفان إلى أبو خالد.

- قهوة أمنا أيام زمان.
- هذه قهوة أم الدار الست وداد..
- أجل، سر القهوة فقه لا تتقنه إلا أيد قليلة.

نظر أبو خالد بافتخار إلى زوجته ثم إلى فوزي:

- بالهناء والشفاء.

في المساء، غادر أبو خالد غرفته كما في كل مساء.. إلى بيت الست وداد.. بينما جلس الأخوان في زاوية العِلِّيّة، بينهما صحن من الفاكهة وكأسان من الشاي. ضوء القمر يتسلل رخياً عبر الكشك الخشبي، يرسم على الأرض نقشاً متحركاً يتنفس مع كل لحظة..

- في ريو دي جانيرو...

بدأ فوزي، ثم توقف كأنه يبحث عن الكلمات المناسبة.

- بنيتُ بيتاً يشبه هذه الدار، لكنه لم يكن كذلك أبداً. كان كالظل بلا جسد. المشكلة أين في رأيك؟! المشكة أنك تظل فاقد الشعور بالانتماء، وتظل تبحث عن وهم تسميه الاستقرار.
- كلنا فعلنا ذلك..

قال طلال وهو يدير الكأس بين أصابعه.

- في ساو باولو، بنى جدنا داراً بقنطرة وليوان، لكنه كان يسميها دائماً "الخيال". الدار هناك لم تكن أكثر من فكرة، لكنها كانت غريبة عن المكان..

ساد الصمت بينهما لحظة، ثم سمعا صوتاً خافتاً يأتي من البركة. همسة موسيقية تتردد كصدى بعيد..

- ما هذا؟

سأل فوزي مندهشاً.

- ستنا فضيلة..

أجاب طلال ببساطة، وأضاف:

- هي جزء من الدار الآن!

في صباح اليوم التالي، بينما كان الأخوان يتفقدان الأرشيف العائلي، عثر فوزي على ظرف أصفر مخفي بين صفحات كتاب قديم، بداخله صورة لمجموعة رجال يقفون أمام الدار، وعلى ظهرها كتابة: "آل الوزان مع الرئيس شكري القوتلي، ١٩٥٤".

- هل تعلم أن جدي كان صديقاً للقوتلي؟

سأل فوزي مبهوتاً. طلال هز رأسه..

- هناك الكثير مما لا نعرفه عن عائلتنا..

[28]

حلب تستيقظ تحت ضبابٍ وردي اللون. الرائحة المميزة لخبز الفرن البلدي تتصاعد من زقاق فرن الأصفر، تختلط برائحة التراب الرطب بعد ليلة ماطرة. تنفس طلال بعمق، كأنه يحاول اختزان كل هذا الهواء في رئتيه قبل أن يضيع. "لماذا عدتُ حقاً؟" سأل نفسه السؤال المزمن. أضاف إليه هذه المرة: "لماذا عاد فوزي؟" لم تكن الإجابة بسيطة. لم يكن الأمر مجرد حنين إلى طفولة عاش شطراً منها هنا، ولا رغبة في استعادة ميراث عائلي. كان شيئاً أعمق، أشبه بجروح نازفة في روحه، جروح ورثها عن جده منصور، الذي مات في البرازيل وهو يحلم بعودة لم تتحقق. ود لو استطاع الدخول إلى عمق روح أخيه فوزي، ليعرف لمَ عاد هو الآخر.. وتذكر كيف كان والده يردد دائماً: "حلب ليست مكاناً، إنها جرح لا يندمل". لكنه الآن يفهم أن الجرح لم يكن في المكان، بل في البُعد عنه.

في المساء، جلس طلال وفوزي على السطح، ينظران إلى القلعة التي شعت بضوء القمر. عاد سؤال العودة يتردد في ذهن طلال، في تلك اللحظة سمعا من غرفة الليوان صوت أبو خالد العجوز يترنم بموال ويعزف على العود:

رسمتك يا حبيبي في خيالي

ولم أرسم سواك بلوح بالي

جعلتك قبلتي محراب روحي

لقلبي في الهجير وفي الظلال

التفت فوزي إلى أخيه وأطلق زفرة..

- كأنه يقرأ أفكارنا!

قال طلال، مغمضاً عينيه من السلطنة ومن رائحة الياسمين المتسلق على الجدار الغربي للمنصورية.. بينما سأل فوزي:

- ما كل هذا الغموض يا أخي؟ الست فضيلة الغائبة الحاضرة، الرسائل، الوثائق المخفية... كأننا في حكاية من ألف ليلة.

أرسل طلال عينيه نحو شبابيك المربع العلوي، حيث كانت آخر مرة رأى فيها طيف الست فضيلة، وانطفأ سؤال العودة في رأسه..

- بل نحن في حكاية حلب التي لم يروِها أحد بعد..

بعد سهرة عامرة أحياها الأخوان في حديث الذكريات التي سرقت النوم من الأعين، استغرق طلال في النوم إلى الضحى غارقاً بلذة اللقاء، بينما نهض فوزي باكراً، وراح يجوس في أنحاء المنصورية متفحصاً أرجاءها شبراً شبراً، كما لو أنه يفتش عن كنز مفقود، أراد أن يفوز بلقيا مجزية لا بد أن جده منصور أودعها في مكان ما.. دخل القاعة القبلية، نظر في المكتبة القائمة على طرف العتبة، مسحت عيناه كتباً ومجلدات تكدست متراصة على الرفوف، غزاها الغبار والعنكبوت، فتح الخزانات الخشبية الواحدة تلو الأخرى، وصلته رائحة الرطوبة والفراغ، في إحداها وجد غرامافون قديم بجانبه أسطوانات قديمة.. خرج إلى غرفة أخرى، تأمل فرشها الأثري وستائرها المخملية، سقفها الخشبي الذي ظل سليماً بنقوشه وزينته، صافح عبق السنين، صعد إلى المربع العلوي، وقف على سطح الدرج يتأمل فسحة الدار والهيبة المشغولة بالحجر العتيق.. في تلك اللحظات خرج طلال من غرفته ودخل أبو خالد من فتحة الدار قادماً من بيت الست وداد.. حياهما فوزي وأضاف:

- جولة كشفية.. لعلنا نعثر على كنز..

ابتسم الرجلان..

- هل أتممت جولتك؟

سأل طلال..

- بقي القبو، وليس أي قبو.. إنه قبو المنصورية..

كان ضوء الصباح يتسلل من نوافذ القبو الواطئة ويغمر معظم أرجائه، تجولت الأعين في بقايا الزمن المرمية هناك، عاينت أشياء مبهمة وأخرى فاقدة الصلاحية.. وفي الزاوية الشمالية الغارقة في العتمة، تكدست قطع أثاث تالف وأخشاب وأوان نحاسية قديمة وأنتيكات محطمة وغرامافونات منسقة وآلات نفخ موسيقية وعدد كبير من الدفوف والمزاهر، وطبل معلق على الجدار مع قارعته.. وفي ركن منعزل كان هناك صندوق وحيد من خشب الأبنوس، بصدف أبيض، علته طبقة غبار.. "ما هذا؟" لفت نظر فوزي.. طلال ينظر بذهول الاكتشاف، وأبو خالد يعتصم بصمته، ثم عندما تساءلت عينا طلال رد بالقول:

- أنا لم يخطر ببالي طوال هذه المدة النظر إلى ما في القبو أو حتى مجرد النزول..

عند فتح الصندوق ظهرت أوراق وكتب مخطوطة بحبر الكوبيا، ووثائق قديمة ملفوفة بقطعة حرير، ومجموعة من أسطوانات قديمة عليها ملصق: "أصوات حلب ١٩٢٤".

حملوه إلى صحن الدار، طلال وضع أسطوانة على الغرامافون الأثري الذي وجده فوزي في إحدى خزانات القاعة القبلية، وانطلق في الحال صوت خشن يملأ الفضاء:

"هنا حلب، تسجيل حي من دار الوزان في حي الجلوم، اليوم العاشر من نيسان ١٩٢٤..."

الصوت الذي خرج من الجهاز كان لرجل يقرأ بياناً ثورياً ضد الانتداب الفرنسي، يتبعه غناء جماعي لموشح "العفو يا سِيْد الملاح". بين الأصوات، تميَّز صوت شاب واضح:

- هذا صوت جدي منصور!

صاح طلال، فيما كان فوزي ينظر في صورة لامرأة شابة تشبه مطربات زمن مضى، مثبتة على مجموعة من الإسطوانات القديمة.. أبو خالد، الذي كان يراقب من الباب، صرخ فجأة:

- الله يا سيدي! هذه مغنية يهودية من حي الجميلية، اسمها فيروز ماميش، كانت عازفة عود شهيرة، وصوتها يضاهي صوت أم كلثوم، أحيت أيام زمان حفلات كثيرة، أنا كنت صغيراً، وعرفتها ولازلت أذكرها، أغلب الظن أنها اختفت عام النكبة!

كان مجيء فوزي فرصة دفعت طلالاً للتفكير بعودة خاطفة إلى البرازيل حان وقتها، ستكون الدار بعهدة فوزي أياماً لن تطول، لقد صار في الأيام الأخيرة يرى صورة أبنائه في الكأس التي يشرب، شوق داهم ما عاد يقوى على رده..

في المساء امتلأت الدار بأهل الحي للمرة الأخيرة قبل سفر طلال. فوزي أحضر غرامافون الخزانة، واستمعوا إلى بعض الأسطوانات التي وجدوها في صندوق القبو، والتي صدحت بصوت رخيم لم تُعرف صاحبته.. عينا أبو خالد ذرفتا دمعاً راح يفيض بكل هذا الشجن، أما الست وداد فكانت قد سبقته هي الأخرى إلى دموع لم تعرف كيف تداريها..

ظلت فكرة العودة إلى البرازيل تقذف طلالاً في حيرة تعذبه، في هذه الليلة كان عليه أن يقرر، وراحت مشاعر شتى تتصارع في داخله، لم يصل إلى قرار، وصعد إلى السطح كما لو أنه يرقى إلى منجاة، ونظر إلى صحن الدار من عل نظرة لا يدري كيف عدها الأخيرة، ثم تأمل الأفق المعتم الذي عاد وقذفه في حضن الحيرة من جديد.. كانت حلب تشبه جثةً هامدةً تحت ضوء القمر. انقطاع الكهرباء حوّل المدينة إلى سلسلة من الظلال المتقطعة، تنيرها أحياناً ومضاتُ قذائف بعيدة.. كان قد أخبر زوجته برسالة عن نيته بالعودة، لكن حلاً علوياً قدرياً رنَّ في جواله، حيث قرأ رداً برسالة جديدة من ابنته لورا في البرازيل:

"أبي، لماذا تعود إلى الجحيم بينما الجميع يحاولون الهروب من هنا؟"

سؤالٌ بسيطٌ يحمل كل تعقيدات العالم، هل الجحيم هنا أم هناك؟ ضحك بصوت مبحوح وهو يلحظ انعطافة أبنائه هناك وإقرارهم بصواب العودة. غرق بمشاعر الحيرة من جديد، لاسيما أن سفره لم يعد يتناسب مع عودة أخيه، فحسم أمره بأن نزل يستطلع رأي فوزي في السفر أو عدمه، أو ربما تأجيله.

[29]

في مقهى الفرافرة وسط سوق الزهراوي، جلس طلال مع أدهم، حولهما مجموعة من الشباب يتناقشون بلهفة عن طرق الهجرة إلى أوروبا. بدا للحظة أن هاجس الهجرة صار أكبر من أمنية، حتى أدهم وحيد أبويه، المعفى من الخدمة الإلزامية، اهتم بالسؤال عن التكلفة، لكنه لم يلتفت إلى أخبار المخاطر التي صرعت الآلاف.. أحد الشباب

التفت إلى طلال، كسر حاجز السن وسأل:

- سيد طلال أنا لا أستطيع أن أفهم سبباً واحداً لعودتك!

طلال لم يكترث بالسؤال، بل رفع فنجان قهوته المرّة:

- أنا عدت... ربما لأنني مجنون!
- حاشاك! لكن أنا فعلاً أتعجب! أنا أحلم بالهروب كل ليلة.. لأننا.. نحن الباقين هنا، مشروع موت آت لا محالة..

أبدى طلال تأثره بحديث الشاب، قلب كفه بأسف، لكنه أشاح بوجهه، كمن أراد قطع الحديث، والتقطت عيناه صورة قديمة للمقهى معلقة على الجدار: محمد خيري يغني هنا عام ١٩٧٥، وحوله وجوهٌ مبتسمةٌ ما عادت موجودة.

انعطف حديث الشبان إلى أخبار الاشتباكات الدائمة غرب المدينة، أرهق السكان المدنيين هناك الأوقات المحتقنة بالخطر، واستمرار الحرب المتبادلة بين القذائف وجرار الغاز..

نظر أبو خالد من جهته في وجوه الشبان، وما التمع في العيون من بوارق الأمل، غصَّ بالدمعة وعلم أن وطناً يطرد شبانه آيل للفراغ بعد زحف العجائز إلى القبور..

في صباح اليوم التالي، وصل خبر: "الجيش يدعو المدنيين إلى إخلاء المنطقة الغربية تحسباً لمعارك قريبة."

أدهم ركض إلى طلال:

- لماذا لا نغلق الدار هذه الأيام؟!

طلال الجالس في الليوان، يقلب صفحات في موسوعة الأسدي، رد بهدوء:

- المعارك ستجري غرب حلب، شرق المدينة هنا أخذ حصته من الموت والدمار.
- لكن الخطر لا يعرف شرقاً من غرب!
- كل حياة لها نهاية، ومن عاش مات.. أنا أعلم أني في النهاية سأكون مجرد صوتٍ آخر يضاف إلى الأرشيف. صوت هو الذاكرة التي لا تموت.

في المنصورية يعم الهدوء عصراً بعد الغداء، أبو خالد انصرف إلى بيت الست وداد، فوزي منشغل باستعراض محتويات صندوق القبو، طلال يجلس أمام الغرامافون يتفحص محتوى الأسطوانات، الواحدة تلو الأخرى. أصوات من القرن التاسع عشر تطل، من الثلاثينيات، من الستينيات.. توقف عند إحداها وهام بالسحر الحلال، وقد أخذه بعيداً صوت صالح عبد الحي وهو يغني: "حبيبي هو، هو عليَّ، الآمر الناهي..." وتذكّر كيف سمعها في البرازيل منذ سنوات، بالصوت الشجي للشيخ صبري مدلل وفرقته، في إحدى جولاته هناك، في حفلة لا تُنسى من الطرب الحلبي.

[30]

عرض أبو خالد على فوزي غرفة الليوان، فقد صار بإمكانه أن يجعل مكان إقامته الدائم في بيت الست وداد، لكن طلالاً أصر على بقاء وليفه العجوز قربه طوال النهار، ورفيق دربه إلى المقهى وجليسه الأعز.. وهكذا أصبحت الأريكة سرير فوزي في غرفة طلال، ريثما يتم تجهيز غرفة له في السلاملك كما ارتأى طلال. وها هو يغط في نوم عميق، لم يعكره دوي انفجارات بعيدة راحت تكسر صمت الليل وتنتزع النوم من عيني طلال وتقطع حبل مسراته، فلم يجد بداً من هجر سريره والصعود إلى السطح، هنالك حوته الظلمة والسكينة، وظل سادراً في صمتٍ ليل ثقيل، تقطعه بين الحين والآخر أصوات قذائف بعيدة، أصوات تذكّر بأن الحرب لم تنتهِ، وأن القلوب التي ما تزال تنبض هنا، تحفر قبوراً للجدران، ولذكريات تحت الأنقاض.

عاد فنظر نحو المدينة التي لم تعرفه بعد، وراح يراقب أضواءها الخافتة ويمعن في التفكير: هل هي النهاية؟ هل يغادر؟ أم يبقى؟ وما هو الثمن الحقيقي للعودة؟ وبينما لفه الظلام، علا في أذنه صدى سؤال بلا جواب: هل الوطن هو المكان، أم الذكرى؟ وهل نملك حق الاختيار، أم أننا محاصرون في حلقات زمنية لا تنفك؟ وبين هذه الأسئلة التي تعلو كالسحب الداكنة فوق أفق مجهول، تبقى دار الوزان القديمة المتجددة واقفة، شاهدةً على حكايات لم تروَ، وعلى أمل لم يمت، رغم كل شيء.

وهكذا.. يظل السيد طلال واقفاً بدوره يراقب مدينة هاجعة، يتنازعه هاجسان، العودة أو البقاء.. ظل يهجس، يتساءل، ربما ينتظر حدثاً ما يجعله يقرر، أو ربما يترك أمر العودة معلقاً... ولكنه في آخر الليل شعر بأنه توصل إلى قرار: لن أعود إلى المغترب.

وللمصادفة فقد حسمت لورا الأمر عندما فاجأت والدها بعد يومين بالوصول إلى حلب، دون إعلامه مسبقاً.. غمرته غبطة لم يشعر بها منذ زمن، استقبلها بداية في فندق سميراميس المهجور نصفه، ريثما يتم إعداد غرفة لها في المنصورية، ومضى يتأمل وجهها

منتشياً بمجيئها، وحاسماً أمر العودة. هي الوحيدة التي لبت نداءه، تأمّل أن يعود إخوتها أيضاً مع أمهم إيلينا في الأيام المقبلة.. كانت لورا قد تركت عملها كمضيفة في شركة الطيران البرازيلية (Azul)، بعد أن عُرضت عليها منحة دراسية من جامعة فرنسية، وبانتظار إتمام الإجراءات رأت أن تمضي وقتاً يطول أو يقصر بجانب والدها في حلب.. تطامنت أحلام طلال، وتمنى أن تستمر إقامتها معه. تناولا فطورهما في الفندق، وتوجها مشياً إلى حي الجلوم عن طريق باب أنطاكية القريب.. حدثها طلال دفعاً لأي مفاجأة:

- سترين الآن عياناً ما لم تسمعيه في الأخبار...

تحفزت لورا وهي تطالع على مرمى النظر جواً سديمياً من خرائب وغبار...

في الدار تلتقي لورا بعمها فوزي، تتعرفه لأول مرة، يتعانقان وقد انتشيا ببهجة اللقاء، تتناغم روحاهما بالحضن الجديد، بحجارة الماضي ودفء الزمن، تلتفت لورا بعدها إلى تأمل محيطها الوارف بالبهاء العتيق، وسرعان ما تنغمس بطقس الماضي وعراقة التاريخ.. لقد نقلتها الدار فجأة من الغبار والركام الذي رأته يتكدس في كل مكان، إلى أصالة في البناء لم تكن تتصورها، ولم تكن قد رأت نموذجها قط، وتعلقت عيناها بروعة البنيان الحجري وتفاصيله المشغولة بالحب ونجوى الروح، ولفتتها أسطوانات قديمة تكدست بجانب مجموعة من الكتب، لمستها بأيد ترتجف، وحملتها إلى غرفة أبيها، ثم نشرتها على السرير بفضول لا يقاوم، فيما قرأت على الأسطوانة الأولى اسم طاهر النقش وصالح محبك، وعلى الثانية اسم صبحي الحريري وعمر البطش إمام الموشحات ورقص السماح، وعلى الثالثة اسم باسيل حجار ومحمد النصار.. عندما وضعت أولاها على الغرامافون الأثري تلبستها الدهشة وهي تسمع صوتاً عميقاً يغني على طريقة مطربي أيام زمان، بصوت متكسر، لكنه توقف ليتبعه مباشرة صوت آخر انضم فجأةً، صوت امرأة تقدم لوصلة غنائية أخرى:

"حلب ليست مكاناً... إنها صوت يبحث عن آذان. اسمعو إلى شيخ الطرب الحلبي وملك السبعاوي أحمد الفقش"

حملتها الأصوات بعيداً في طقس من بوح الروح، وسألت والدها إن كان يحتفظ بأسطوانات أخرى، فأشار إلى صندوق القبو الهاجع في ركن الليوان، هرعت إليه، ولامست كفاها خشب الصندل، ووصلتها رائحة بخور دهري، فأقبلت على فتح الصندوق كما لو أنها تطالع بعينيها قدس الماضي وأسراره الدفينة..

بعد قليل سيفد إلى الدار تباعاً بعض المدعوين إلى لقاء الخميس.. حرص طلال دائماً على سرية الدعوة والأشخاص.. وتدور عينا لورا، ترصد حركة غير عادية في الدار، ويدور سؤال في ذهنها عما يجري!. ينتابها فضول في معرفة ما يفعل عمها فوزي، وهي تراه يفض صندوقاً مكتظاً بصور مؤطرة ووثائق، فيما يعكف شبان آخرون على نشرها وتعليقها على جدران الليوان وفسحة الدار، ترتفع جلبة في المكان، تستمع إلى كلمات عن بعضٍ من سير شهداء ومغيبين. شاعر فتى فاض بكلمات أقرب إلى البوح الشجي، ترافقت مع عزف ساحر على الكمان يؤديه شاب مفعم بالحضور وبث الأثر، تناغم صوتا الشعر والكمان، رفت أجنحة الفن الخالص في فضاء الدار، أخيراً توقفا معا، وانتزعا تصفيقاً حاراً ضجت به الأكف والأرواح.. ستقف لورا مذهولة تتأمل كل هذا، وستسأل نفسها عن دور ما تقوم به. أدهم، بشباب موفور، يلفت نظرها، فيما بدورها لفتته عيناها الحالمتان، وشعرها الكستنائي الوارف، وغاص في سحر ناطق. بنت الوزان ماست كفراشة تزهو بربيع قادم، أدهم اقترب منها مسحوباً بطيف لا يقاوم، وعرف عن نفسه، "وكما ترين، نحن هنا نستوقف الزمن ونشحذ الذاكرة، السيد طلال منحنا فرصة أن نحيا من جديد.". تشربت لورا كلماته، عادت وتأملته وهو يتسيد المشهد ويصدر أوامر، فيما يعتلي درجة الليوان أمام من تجمعوا في صحن الدار ومحيط البركة.. يخوض في تعريف ما بين الأيدي من وثائق وصور، يقف عند حوادث بعينها، يستعرض أمور المغيبين في السجون.. لورا تتصفح وجوه الحاضرين، ترصد علامات الغضب والأسى

المحفورة فيها، آلمها حقيقة أن تطالع بعض هذه الوثائق المريعة، وهذه الشهادات الدامية، وحجم التسلط الإجرامي على حياة الناس، وتساءلت عن أسباب موجبة لكل هذا العذاب، وما تخفى وراءه من نيات نحر البشر والتاريخ، أليس هذا الخراب في أعمق معانيه يمثل طمساً للذاكرة، وقتلاً لكل ما يجول في الخاطر من شواهد الفخر ووعي الذات؟ وانبعث في ذهنها في تلك اللحظات ركام شائك من الأسئلة، أشبه بركام الحجارة التي شهدتها في قلب حارة الجلوم، وفي الطريق إليها.. نظرت إلى أبيها وهو يتجول بين الوافدين، وتساءلت أيضاً إن كانت تعرفه حقيقة أو عرفته يوماً، في حين انتشلها صوت أدهم ثانية وهو يرحب بأنفار كادت تملأ فسحة الدار..

- ... اليوم نفتح الأرشيف للجميع. من الآن، كل صوت هو ذاكرة، وكل ذاكرة هي بيت.

يقول أدهم، فيما اقتربت لورا من أبيها، ونظرت في عينيه مستفهمة عما يجري، فاقترب منها وهمس:

- الآن فهمت... العودة ليست مكاناً... إنها صوت يعبر الزمن. إذا كانت الحرب تهدم الأماكن، فإن الأصوات والصور تخلق أوطاناً جديدة في قلوب من يسمعها.

لورا تمسك بيده الهزيلة تكاد تخنقها غصة.. بينما يضيف:

- بل لأن الذكريات كالنباتات المتسلقة، إن لم يعتنِ بها أحد تموت متشبثة بالجدران.

تأملت لورا محلقة هي وكلمات والدها معاً، تعرفت تواً إلى حياة جديدة لم تكن تدري عنها شيئاً، وأبهجها هذا الدفق من المشاعر المكتنزة بالمعنى. عاد أدهم ليشد انتباهها، والتقت أعينهما في نظرة امتنان ورضا، ودت في تلك اللحظات لو أنها اقتربت حقاً من قلبه

ومشاعره، إذن لعرفت سر هذا الوميض الساحر في عينيه.. من طرفه، كما لو أنه قرأ ما جال في خاطرها، امتدت يده إلى العود، لامس أوتاره بنقرات أولى، ثم انهمر العزف الصاخب يتلوى في لحظات شدت انتباه الجميع حتى علت آهات في جنبات الليوان، وصفقت لورا مع انتهاء العزف مُوْدِعَةً أجمل ثناء في قلب أدهم.

سلاف المحامية كانت حاضرة، رأت لورا في صورتها اللافتة فتاة جادة ينبىء وجهها بحزن خفي، اقتربت منها وتعارفتا، انشدت سلاف بدورها إلى روح رقيقة عذبة وغاية في الألفة.. انضمت إليهما ريم، بحيث اجتمع ثالوث الأنس والخفة - كما سماهن فوزي - في أحاديث لا تنتهي، استغرقتها سيرة سامر خطيب سلاف ويأس العودة..

العم فوزي وقف أمام إحدى الصور المعروضة يتأمل، كان هناك بشر يشكلون دائرة قطرها ما خلفته قذيفة طائرة، تساءل بإشفاق: هل الغريب الحفرة، أم غربة من التفوا حولها ينظرون إلى موت مؤجل؟!.

بجانبها كان أدهم قد علق صورة أخرى تمثل بقايا صف مدرسي، هياكل مقاعد من حديد، احترق خشبها في شتاء مضى، خرائب وأتربة، سقفاً يستند على خاصرة حائط. ما تبقى سبورة ومقعد واحد تجلس فيه فتاتان، أمام السبورة، البنت الثالثة في دور المعلمة مع طبشورة بيضاء.

في زاوية الليوان توقف طلال طويلاً عند لوحة (كاريكاتير) لغرفة في وزارة الخارجية، على الباب كلمة (محفوظات)، وفي الداخل رفوف عليها مصنفات جميعها تحمل عبارة (حق الرد).

آخرون تجمعوا أمام كاريكاتير آخر يمثل صورة بسطار عسكري عتيق ومتهالك، وعلى زاوية اللوحة شريط نعي أسود..

صورة أخرى عادت واستوقفت المحامية سلاف: في هذا الشارع الممتد كل شيء معطوب، الأبنية، مع الباص المتوقف عرضاً بلا شبابيك، مع عمود الكهرباء المائل، مع الشجرة الساقطة على السيارة، مع الأرواح الهائمة.. وعلى طول الأبنية السكنية، سقطت السقوف على بعضها... تأملتها سلاف وبدت لها كزلاجات بلا أعياد لأطفال موتى..

شكّل الليوان والقاعة الكبيرة صالتي عرض منوعة لصور أبطال وشهداء ومغيبين، جالت الأمهات يستطلعن ويسألن، وسالت منهن دموع حبسها الآباء وضنوا بها، أبو خالد لفت نظر لورا إلى هذا الوقار الذي يزين صدر الليوان، عرَّفها العم فوزي به، طالعها العجوز بابتسامة ماتعة، الست وداد أرادت أن تحد من فصل الكرب والأحزان فأطلقت هنهونة تقول: "تلاتة وأربعة صاروا عشرة، وعشرة وعشرين صاروا مية، واللي ما بهنينا وما بيفرح تجي الرزي ي ي ي ة.." وعلت زغاريد أشعلت الحماس، بينما غادرت الست وداد الدار من الفتحة المفضية إلى دارها، وعادت بعد قليل تحمل صدر هريسة فخمة من صنع يديها، غمرت سطحها بطبقة ثرية بالفستق الحلبي، وقامت بتوزيع قطع وفيرة على المدعوين وهي تعلن المناسبة الأحلى مرحبة بقدوم الفاتنة لورا ابنة طلال. لورا تسأل والدها:

- أبي! من تكون هذه الست؟ قد أخجلتني بكرمها..
- إنها الست وداد حجر الأساس هنا، وزوجة أبو خالد، وقد عرفتِ ابنتها ريم.. وهي يد العناية التي سخرها الله للحزانى والمقهورين..

طلال بعد فصل الحلوى يصعد مصطبة الليوان، تتوقف الأحاديث الدافقة لكنها لا تنقطع؛ يشكر الست وداد، يشيد بدور الأمهات في زمن المآسي، ثم ينعطف بصوت حازم إلى كلمات مؤثرة:

- ... إن ما تنشرونه اليوم يضيف صفحة شديدة الوخز والإيلام لضمير العالم أجمع، نعم! لقد دمّروا هنا كل شيء! طمسوا معالم المدينة القديمة، حولوا

أطول سوق أثري في العالم إلى تلال من الأنقاض، اقتصوا من البشر والأوابد، مع ذلك، وربما من أجل ذلك لن أعود إلى حيث الذكريات اليائسة، أنا سأعيش هنا وأموت هنا.. وسأظل أبحث عن الوطن الذي يختبئ في عيون أطفاله. هذه الدار أردناها قلعةً لكل من يرفع صوت الحق. أبناؤكم سيتعلمون هنا.. في مدارس الأنقاض كما أحببت أن أسميها، ستكون دار الوزان هذه ميداناً واسعاً للعمل المدني، وأول محكمة شعبية لتوثيق جرائم الحرب، ولن يكون قضاتها إلا ضحاياها!

هنا، في هذه اللحظات، ومع التصفيق العالي الذي انطلق يحيي كلمة طلال.. سيغادر عنصر الأمن سطح بيت الحاج صالح المطل على المنصورية، وقد امتلأ جواله بفيديو مصور وتسجيلات صوتية والوافر من الصور.

[31]

في المساء ستعود لورا إلى سميراميس لتمضي ليلتها الأخيرة هناك، في اليوم التالي سيقوم طلال وابنته بمغادرة الفندق نهائياً إلى دار الجلوم.. يودعان سميراميس وساعة باب الفرج، وشيراتون المضيء الرابض هناك بحداثته المعمارية وسط محيط مغسول بالحزن والخرائب.. يصلان، وتهيم لورا في أرجاء الدار ثانية، وتنظر إلى هذا الجمال القديم المتجدد، تتأمل ثانية الصور المعروضة بالأمس، وتسأل.. أبو خالد فقيه الدار والأحزان يجيبها.. كان قد جهز لها سريعاً بمساعدة زوجته الست وداد إحدى غرفتَيْ الدَوَخانة، حيث الكشك المطل على الزقاق وأصوات المارة.. تمضي لورا ليلتها بنوم مترع بالأحلام.. في الصباح تصعد إلى سطح الدار، تصافح الشروق وتحضن القلعة بعينيها، تسائلها، تنتشي بجمالها.. طلال وفوزي يصعدان إليها، يسبقهما عبق القهوة والهال. لورا تسأل عن القلعة، عن هذه الأعجوبة الأزلية، عن هذه الدهشة الرابضة في حضن الزمن، طلال يرشح أدهم لمهمة تعريفها بحلب وقلعتها، يتصل به، أدهم يكون في الدار بعد قليل:

- مهمة سياحية تنتظرك.

يبادره طلال وهو ينظر إلى لورا ويشير إليها، تتسع عينا أدهم، يفهم المراد، يتشرب جمالها بعينيه..

- أنا جاهز، في أي وقت تشائين.
- الآن!

ترد هي.

في الطريق، في قلب حارات الجلوم يغوصان معاً في حديث الزمن، يعرض عليها برنامجاً لجولات مسلسلة في درر حلب وكنوزها المتبقية.

- اليوم من القلعة نبدأ.

لورا تبدي لهفتها، وأدهم يأخذ سمت الدليل السياحي، غير المحايد وغير المنضبط:

- كل منكما سيسعد بالآخر..

أبدت دهشتها مع خفر أنثوي. صعدا الدرجات الحجرية القديمة، دخلت لورا في غمرة الماضي، أحيطت بعمارة جليلة، انغمست في جزء من حلم، في زمن مستعاد، شعرت كما لو أنها عرفته يوماً، وداهمتها فكرة العود الأبدي - كما طالعتها في رواية"كائن لا تُحتمل خفته"*- راحت تتقلب في ذهنها، تاهت لحظات عن كلمات أدهم، ومن أعلى القلعة، سرعان ما بانت لعينيها بانوراما حلب.. أذهلها المنظر من هذا العلو، هيبة لم تشهد لها مثيلاً في مدن أخرى، لم تكن المدينة التي سمعت عنها أثناء الحرب، ولا المدينة التي سمعتها من الحكايا، كانت شيئاً ثالثاً: مدينة تلتئم. مدى واسع من الحضور الواثق. هنا بقعة خضراء جديدة، أشجار نبتت واستطالت مكان بناء مدمر، إلى جانب مبنى جديد يبنى، في الأفق أسراب طيور، وعلى مرأى البصر ظلت هناك أحياء ما زالت تحمل ندوباً عميقة..

عادت لورا واستمعت إلى كلمات أدهم الشارحة، وارتفعت على أجنحة الماضي، طارت وحلقت، كانت عيناها توحدان الصورة وتشكلان معنى جديداً، طازجاً كخاطر نادر الحدوث.. في تلك اللحظات وقف أدهم خلفها.

- انظري إلى حلب. إنها تتنفس.
- نعم! وأنا أتنفس معها.

التفتت إليه. الشمس كانت خلفه، تخلق هالة حول رأسه. فيما رأى من جانبه وجهها الغارق في الدهشة والضوء، لامست قلبه عاطفة مفاجئة، أراد أن يعانقها، وشعر أن يديه اللتين تلاعبتا بالأوتار أمس، كانتا الآن تحلمان بلمس وجهها بلطف، وتهيأ له وهو

يديم النظر في دهشتها أن شفتيها تطالعان مشاعره فتكادان تهمسان بكلمات حب في مكان عالٍ يطل على مدينة ناجية..

نزلا من القلعة، ثمة مقاه انتشرت في سفحها، موائد كثيرة في الهواء الطلق اصطفت تحت أشجار قديمة. جلسا وطلبا شاياً بالنعناع. كان المقهى مليئاً بأناس من جميع الأعمار: شُبّان يضحكون، فتيات يدخن النراجيل، أم تتبع صغيرها وبالونته، أطفال يتراكضون حاملين دواليب الهواء، عائلات تنغمس بالطعام مبتهجة على مائدة عامرة.

أخرج أدهم من جيبه شيئاً. كان دفتراً صغيراً، مجلداً بجلد بني.

"هذا لكِ. لكتابة القصص الجديدة. ليس قصص الحرب. بل قصص الربيع الآتي. قصص المقاهي، والموسيقى، والناس الذين يلتقون من جديد."

فتحت لورا الدفتر. فرَّت صفحاته، كانت بيضاء، ناعمة، تنتظر. فكرت أن هذه أول مرة ستكتب فيها عن شيء جديد تماماً، غير محمل بذكريات سابقة. أخذته بامتنان، توقفت، ثم كتبت على الصفحة الأولى سطراً أمام عينيه اللتين راحتا تتابعانه بشغف، عله يلتقط كلمة واحدة تسعف قلبه المفعم بحب داهم: "اليوم، شربت الشاي مع أدهم، كان دليل أزمان سحيقة، في مدينة تتعلم من جديد كيف تبتسم." خيبة عابرة لم يشأ التوقف عندها، كانت الكتابة بسيطة، لكنها كانت احتفالاً بالحاضر، باللحظة العابرة الجميلة التي لا تحمل ثقلاً سوى جمالها المؤقت.

مع اقتراب المساء، قررا العودة والالتفاف حول القلعة، عابرين بالأحياء القديمة. في زقاق ضيق قرب حمام السلطان، سمعا صوتاً يأتي من فناء مفتوح. صوت امرأة تغني. كانت أغنية حلبية قديمة عن الحب والفراق. وقفا يستمعان. كانت حلب هذه جديدة بالنسبة للورا، مظاهر عديدة أبهجتها، لم تكن تشهد احتفاليات صاخبة، بل لحظات صغيرة من جمال يظهر في الزوايا هنا وهناك، كزهور برية تنبت بين الركام.

امتد سيرهما إلى أحياء القصيلة وباب المقام.. في طريق العودة إلى البيت، مرّا بجوار جامع (الطواشي). الأضواء كانت مضاءة، مستمدة من مولدة قريبة تهدر، والمصلون كانوا يخرجون. رأيا أبو خالد مصادفة، خارجاً لتوه من صلاة المغرب، رآهما، أشار إليهما.

- "كيف كان يومكما؟

سأل.

- جميل!

أجابت لورا ثم أضافت:

- كأننا نكتشف المدينة من جديد، لم أكن أدري أن حلب بكل هذا الجمال.
- هناك من عاقبها على هذا الجمال.
- اليوم..

قالت لورا

- شعرت بـ غرابة في عقلي*، يعني.. كم من الشر يلزم حتى يفتك إنسان ما بكل هذا الجمال! يا الله.. فعلاً! إن ما عرفته عن مدينتي تهاوى أمام ما رأته عيناي. ليس لأنني طالعت صفحات الماضي ممثلة بحجارة وأوابد، بل لأن الحاضر أصبح قوياً بما يكفي ليكون له وزنه الخاص. وبشعور راسخ بأنه لن يهزم.
- الحب هكذا! لا يمحو الذكريات، بل يخلق ذكريات جديدة تكون أكثر إلحاحاً..

قال أدهم.

وفي المنصورية كانت الصور شواهد على الجدارن: صور حفلة الأمس، صور الزمن الأغبر.. عادت لورا فقرأت فيها عن أسى قاهر وفقدٍ لا يعوض، وقبل أن تنام وقفت عند نافذة الكشك، تنظر إلى الزقاق الهادئ. أضواء البيوت شحيحة تستر ما وراءها، لكنها

عادت فسمعت من بعيد صوت كمان، كما لو أنه ذات العازف الشاب الذي رافق الشاعر في لقاء الأمس.. وأدركت أن هذا هو الانتصار الحقيقي: ليس انتصار طرف على طرف في الحرب، بل انتصار الحياة على الموت. انتصار الموسيقى على الصمت. انتصار الحب على الخوف. وعرفت في تلك اللحظات الهاجس الذي كان يوجه خطوات أبيها وصولاً إلى بيت الجلوم، وأن هذه المدينة، مثل قلبها، تتشكل من جديد، بنضج جديد، يحمل الندوب لكنه يرفض أن يتركها تقوده، ويختار، كما اختار الوالد بدلاً من ذلك، أن يرقص على إيقاع موسيقى جديدة، بينما لا تزال أصداء الموسيقى القديمة ترن في الرواق.

في جلسة المساء يغرق فوزي في تصفح وثائق وصور جديدة، تبادره لورا بشريط مسجل تخرجه من حقيبتها..

- انظر عمي هذه تسجيلات تضاف.. لم تسمعها بعد. سأقوم بتحويلها إلى نظام تسجيل حديث، لتكون متاحة.. أصوات حلب التي لم يعرفها أحد. أصوات الباعة، أصوات الأطفال في دروب الحارة، حتى صوت المطر على سقوف القرميد..

ينضم طلال ويسأل:

- كيف..؟

لورا تضع شريطاً آخر في آلة التسجيل، يستمع طلال ذائب القلب وهو يقول:

- تحيا الأصوات! لأن المدن لا تموت حين تُدمر، بل حين يُسرق صوتها.

ثم ينحني متأثراً على المسجل. لورا تنظر إلى احتقان عينيه، فيقول:

- لورا! العودة ليست مكاناً نصل إليه، بل صوتاً نحمله في قلوبنا.

وفوزي يقول:

- لن يكون إيقاظ الموتى يوم الحشر إلا بصوت!

---

* اسم رواية لميلان كونديرا.

* عنوان رواية لأورهان باموق.

في الدار، ظل أبو خالد يثير فضول لورا من بين كل ما طالعته من مشاهد وصور ووجوه، حتى صار في ذهنها سؤالاً كبيراً، ولغزاً صامتاً محيراً. تسأل أباها عنه فيعتصم بالصمت لحظات، ثم يشير إليه وهو يراه قابعاً أمام باب غرفته في الليوان، أنْ "اسأليه، ها هو أمامك.". لورا يثيرها الفضول أكثر، تسحب كرسياً وتجلس قبالته، يرفع العجوز عينيه إليها، يبتسم، تشكره بامتنان على ذوقه وأناقته في تجهيز غرفتها، تبدأ بالسؤال عن حاله، عن صحته، عن سر وجوده هنا في دار الجلوم، تحرك في نفسه جمراً تحت رماد، يحدثها عن ظروف لجوئه إلى دار أجدادها، يسألها إن كانت تستطيع السهر ليحدثها أكثر، فترد بالإيجاب، ويسترسل هو في رواية ما حدث:

- أنا مدرس متقاعد منذ سنوات، لو أنني في عهد الشباب لكان لي سلوك آخر، ما شاهدته وشهدته يدمي القلب، وذكرياته حفرت أوجاعها في رأسي إلى الأبد.. كنت قد فكرت أن التقاعد سيمنحني وقتاً للراحة واستدراك ما فات من مسرات وفسح.. لكن ما حصل أني أصبحت مع كثيرين غيري هنا دريئة للظلم والقهر ومرارة الفقد... سآتيك بالمفيد.. بعد أحداث درعا التي كانت البداية، بدأت أخبار الثورة تتعاظم، نحن في حلب لم نلتفت للمشاركة في التظاهر والعصيان، لكن الحراك الثوري في كل جمعة ما لبث أن بدأ بعد مشاركة العصابات الموالية للأسد من الشبيحة والعشائر في الدعم والقتل، ومرابطتهم مع هراواتهم، ثم أسلحتهم، أمام المساجد وبين المصلين بعد كل صلاة جمعة، وقد أصيب كثيرون واعتقل كثيرون، كانت مواجهات دامية وحاقدة وفظيعة.. وصولاً إلى دخول الثوار حلب الشرقية في منتصف ٢٠١٢، وبدء مرحلة جديدة عنوانها القتل اليومي لإخضاع المدينة.. في الأيام الأولى لدخول الثوار حلب الشرقية بدأت الدبابات إلى جانب طلعات الطيران اليومية تدك المدينة بوابل من القذائف، بمسوغ جديد يطلق على الثوار هناك صفة الإرهاب، وعلينا

نحن سكان شرق حلب بيئة حاضنة وداعمين للإرهاب، وهكذا أصبح الجميع هدفاً مشروعاً للقتل، لا سيما بعد أن أحكم الثوار سيطرتهم على حلب الشرقية، وبدأ مسلسل القصف الجوي في رمضان أواخر آب من عام ٢٠١٢. اختفت المواد التموينية والقوت اليومي، ولم يعد في السوق ثمة بصلة. لكن بعد أيام قليلة بدأ التنقل بين حلب الغربية والشرقية من معبر بستان القصر، وصار هذا المعبر هو الشريان الحيوي الذي أبقى على الرمق الأخير من حياة الأرواح. يومان في الأسبوع تظل حلب الغربية تناديني، أغادر قاضي عسكر وأقصد مقهى السعد الذي صار ملح أيامي، أمضي وقتاً بين صحبي وأعود في الظهيرة. عندما أصل المعبر تشتد ضربات قلبي، ولا أدري من سرعة المشي أم من دقائق الرعب التي تظلل المشهد كله.. مئات من البشر يهرولون، يلهثون، يتصادمون.. قناصا القصر البلدي ومبنى الإذاعة، يرصدان الجميع ويحصدان العشرات، فبين لحظة وأخرى تئز طلقة، صياح بآه راعبة يطغى على اللهاث، امرأة تدلي جانبها فجأة يداً مدماة وتصرخ، تتناثر النقاط الحمر على التراب، "إسعاف يا شباب، أنا بعرضكم، أمي.." بينما تنزلق طلقة أخرى قرب أذني فتنطلق قدماي بلا إرادة إلى جري محموم.. مشهد يتكرر في كل مرة بصور شتى، لا أدري ما الذي يدفعني لأعيد الكرة! حيوات كثيرة كتبت لي، شهدت أمواتاً على محفة، يُنقلون بين الحلبَيْن. جري لاهث في الاتجاهين، يشتد الزحام من بعد العاشره صباحا حتى غروب الشمس، عندها يغلق المعبر. على الحاجز صادروا لي لحماً، وأخرى زيتاً، وثالثة كيس خضار، أرجو عسكري الحاجز أن يعيدها لي، ينهرني ويشهر بندقيته في وجهي، عدت لا أحمل شيئاً لا في الذهاب ولا في العودة.. إلا بإلحاح من أم خالد بإحضار أشياء لا غنى عنها. ابنتي هيام كانت تحضر في ذلك العام منهاج البكالوريا، دراسة حرة، واضطرت أن تلجأ إلى بيت خالها في حي الجميلية، لتكون قريبة من معهدها، تعود إلى البيت آخر الأسبوع لتمضيه معنا، وتصل باكية ومصممة على عدم الرجوع إلى

حلب القهر والموت.. في المقهى تحتل أخبار المعبر حديث الجلسة، في كل يوم قصص جديدة مفتوحة على الموت والدماء، وفي كل يوم تتعاظم الحشود الزاحفة أكثر، وحصة القناص محفوظة، يأخذها متى شاء، وعلى هواه، وكما يحلو له، يومياً، ربما للتسلية لا أكثر! حتى اقتصرت ضحايا القنص في أحد الأيام الدامية في المعبر على استهداف النساء الحوامل برصاصة في البطن فقط! في النهاية فإن المعبر الذي أعلنه النظام كطريق آمن من الأماكن المحاصرة، تحول إلى فخ قاتل. كنت أتساءل باستمرار على نحو أرقني، هذا القناص مم جُبِلَ! هل يحيا كما نحيا! هل يمتلك روحاً، أم صُنع من طينة أخرى غير طينة البشر! هاجس التفكير يقتلني، على وسادتي أحبس دمعة وأنام. الخلاصة.. بعد إغلاق معبر بستان القصر بدأ مسلسل القصف الجوي والبراميل المتفجرة، عائلات بكاملها فُقدت واندفنت تحت الأنقاض، أنا لا أستطيع نسيان ابنتي الصبية وزوجتي لحظة... لا أنسى منظر دمائهما المختلطة بالتراب.. رحلتا فجأة دون وداع، وبلا ثمن، جريرتهما أنهما كانتا هناك لحظة القصف. والآن! إذا أردت ما في قلبي فإني أقول: إن انتهاء الحرب لا يعني شيئاً، على الأقل بالنسبة لي، كيف سأشعر أن الحرب قد انتهت وفي روحي عاهة منها، حين أستطيع أن أنسى وأتخلص تماماً من الذاكرة سأحس وقتها أني شفيت من الحرب.

أمسكت لورا قبضة يده المرتجفة بكلتا يديها، كمن يحمل إلى قلبه العزاء ويرجوه أن يتماسك، بينما استمر يفضي بخزائن قهره:

- آه يا بنتي! يعلم أباك - وقد حدثته يوماً - كيف ابتلينا بنظام عنصري لا يعرف غير التسلط والفساد وقتل المعارضين، سميته يوماً نظام الأقنعة، أقنعة كثيرة سنحتاج حقيقة إلى زمن طويل لإسقاطها، لإظهار الوجه الحقيقي أمام العالم وأمام شعبنا أو من ظلوا يسيرون في ركبه، بدافع الخوف تارة أو الجهل

والمصلحة تارة أخرى.. أقنعة كثيرة.. كل قناع له عنوان عريض يسد عين الشمس.. خذي عندكِ.. قناع للمقاومة والممانعة ضد إسرائيل، قناع الهجمة الإمبريالية والمؤامرات الخارجية، قناع الكذب وإنكار حقيقة ما يجري، قناع الشفافية، قناع العصابات الإجرامية الممولة من الخارج، قناع محاربة الإرهاب، قناع شرعية الدولة ومؤسساتها، قناع السيادة الوطنية وسقف الوطن، قناع مجلس الشعب والدستور وحل المادة الثامنة فيه، وقناع الأقنعة جميعها: الشعب السوري هو الذي يقرر.. وخلف الأقنعة سيظهر الوجه الحقيقي للنظام (الطائفية، الاستبداد، الفساد).

استرسل أبو خالد في ذكر وقائع الثورة ومآسي الحرب على امتداد مساحة البلاد، غاصت لورا في أجواء من العسف وأفعال الإجرام، ما أذهلها في كلمات العجوز، ليس مجرد الأخبار فحسب، على فظاعتها، بل كم القهر الذي تجرعه شعب مسالم اقتيد مرغماً إلى حتفه بلا أدنى جريرة.. وداهمتها موجة غضب غامر، وتساءلت عن معنى ما يعطي قيمة لوجودها هنا.. وعلى الرغم من أنها كانت تعرف الكثير مما جرى، فقد كانت الأخبار تصل إليهم في ساو باولو كل يوم، راحت ترسم في مخيلتها صوراً للفجائع والفظائع التي ازدحمت في رأسها كما شهدتها مساء الأمس، وكما جسدتها المرثية الدامية التي فاه بها العجوز اليوم.

[33]

في مساء متأخر أخذت لورا تغالب النوم العصي وحيدة في غرفتها الجديدة، دون أن تنسى ملامح الأسى والفقد في وجه العجوز. كانت بحاجة ملحة إلى نوم هادئ تستريح فيه من عناء أيام حافلة بالإثارة، فأضافت إلى عنائها اليوم حزناً طاغياً طرد النوم من عينيها، إلى أن حظيت بإغفاءة قصيرة قبيل نور الصباح، واستغرقت بعدها في نوم عميق اقترب من الظهيرة، حتى تردد في سمعها الذاهل صوت والدها الجلي ينتزعها من نوم أشبه بالغرق، ويدعوها للنهوض، لتزور بصحبتة بيت الست وداد، تلبية لدعوة على الغداء..

بعد صحو صعب، تنهض وتعد نفسها.. يصبّحها والدها بالخير، ومعاً يعبران الفتحة ما بين الدارين، يتبعهما العم فوزي، فيما يتلقاهم في الطرف الآخر أبو خالد والست وداد بوجهين يطفحان بالبشر، كأنما يرسلان من قلبيهما تحية لمن قال الجار قبل الدار، تحتضن الست وداد لورا وتمطرها بالقبلات، وتغمرها ريم هي الأخرى بعناق.. بينما ينشط أبو خالد بتحضير القهوة بيديه، وسرعان ما تدور فناجينها عابقة بطعم الترحاب، ويستغرق الجميع بأحاديث شتى.. إلى أن نهضت وداد لإعداد الغداء، فاليوم لا أحد يذوق طعاماً إلا في بيتها، ومن صنع يديها.. لورا وريم مضتا في تفصيل الأحلام على هواهما، ثم خرجتا في جولة قريبة، بدأت من حي الجلوم، مروراً بسوق باب أنطاكية، وصولاً إلى العقبة. صعقت لورا من منظر الخراب وتلال الحجارة والأتربة والأعشاب البائسة في كل مكان، وهالها كمّ الحقد الذي أثقل كاهل الحجر، وحين عودتها مع ريم من الجولة، تأكد لها فداحة ما شاهدته من صور ووثائق عن القتلى والمغيبين، وأدركت هول ما رأت، وحجم الكارثة التي حلت بالمدينة، فالصورة كما بدت لها على الأرض أكثر فداحة من مجرد مشاهدة صور أو وثائق وشهادات، أو حتى ما سمعته من العجوز بالأمس.. رغم ذلك حاولت رسم ابتسامة مزيفة على جدران حي العقبة المنكوب، معجبة بآثاره مع غصة حارقة، بحيث لم تستطع إخفاء معالم الحزن على أرجائه المدمرة.. في

الوقت نفسه شاهدت من علٍ، من أمام جامع القيقان الطاعن في القدم، المدمر نصفه، كيف استلقت المدينة هناك في الغرب مسالمة في شبه سُبات، وكيف ضاعت معالم السور بالسكن في أبراجه، وانتشار الحوانيت الضخمة في واجهته، فضلاً عما لحقه من دمار وتصدع.. في طريق العودة صعدتا باتجاه القلعة، واستوقفهما مقام النسيمي المقتول، واستمعت لورا إلى بعض أخباره من ريم، ورأت في حكايته فصلاً من فجائع حلب وجرائر الطغاة.

في الظهيرة عادتا إلى البيت منهكتين وقد استبد الحزن بقلبيهما..

- هل أسعدتكما الجولة؟

طلال يسأل.

- كانت مشاهد تعمي البصر يا أبي! ما هذا؟!

ردت لورا وأضافت ريم:

- لا شك أن كل حجر رأيناه مرمياً في الأرض كانت وراءه حكاية!

بدا الأسى في العيون، وأطلق أبو خالد آهة طويلة، بينما التفت إلى زوجته يطلب إليها إعداد المائدة بمساعدة ريم ولورا، فيما فتح طلال طاولة الزهر وانخرط في لعبة حماسية مع العجوز، أما فوزي فقد جلس ينتظر دوره للعب مع الرابح..

- سيد طلال! أصبح من الضروري أن نطلق اسم هذه الدار بالدعوة إلى حفلة يحييها سيد الطرب الحلبي الشيخ حسن الحفار..

يقول أبو خالد وهو يتلكأ في رمي الزهر.

- بكل سرور، أتمنى، ستكون من أروع الحفلات.. كلّمه وحدد الوقت.

يرد طلال بفرح. أبو خالد يضع كفه على صدره..

- قريباً، دع الأمر لي.

- طعامكم اليوم يدفئ العظام..

تقول الست وداد وهي تدعوهم إلى مائدة عامرة في قاعة واسعة حفلت بأطايب الطعام الحلبي.

أخذتهم أحاديث لا تنتهي على المائدة، وانتبهوا أخيراً إلى أنهم أسرفوا في الطعام، بعد أن ترددت على مسامعهم مرات عبارة الست وداد "يا جماعة الأكل على قد المحبة"، رغم ذلك توقف أبو خالد عن تناول لقمة أخرى، منتظراً كأس شاي من يد ريم.. تناولوا الشاي، تعالت الأصوات ورنت في القاعة الضحكات، وانتشت الست وداد ببهجة لم تزرها منذ سنوات..

عصراً، يعود طلال إلى غرفته، يعكف على موسوعة الأسدي، يقلب صفحات حافلة بأخبار المدينة وناسها، أما فوزي فقد خرج للتريض حول محبوبته القلعة، كعادته منذ حل في المنصورية.

داعب الوسن جفني العجوز، فاستسلم لإغفاءة عذبة في غرفة الليوان بعد غداء شهي.. بينما ظلت لورا هنالك تجالس ريم، فتغرقان اثنتاهما بأحاديث لا تنتهي. لكن لحظة من فزع تسقط في قاع الهدأة والغفوة، إذ راح طرق عنيف على باب المنصورية يهز أركان الدار، يتسمر طلال في المكان، بينما ينتفض أبو خالد من غفوة عابرة ويقذف بنفسه نحو الباب، لكن الطرقات المجنونة ما لبثت أن قذفت بالباب في وجهه، وتدفق بخطوات قافزة، وبوحشية منظمة، عدد من المسلحين، ببزاتهم العسكرية والمدنية، يصرخون باسم طلال، مقترناً بأقذع الصفات... أبو خالد تلقى أول الصراخ وردحاً من شتائم، تدافعت خطواتهم الهوجاء في صحن الدار، وسُمع بدايةً صوت أبو خالد يجادل بصوت مبحوح ثم يخفت فجأة، على إثر لكمة تلقاها على أسنانه المخلعة. ساد صمت قطعته

شتائم فاجرة، لتعود آهات العجوز ترتفع وتتردد مع اللكمات. سألوه من يكون، عرف عن نفسه، وسرعان ما وضعوا الأصفاد في يديه، من بيت الست وداد ارتفع الصراخ وأصوات الفزع، بينما اندفع المسلحون إلى غرفة طلال الذي لم يدرك حتى الآن حقيقة ما يجري، وبمجرد اقتحامهم غرفته رفع كفيه إلى أعلى مستسلماً.

- أهلاً سيد طلال، كان لا بد أن نلتقي ثانية..

ظل طلال بعينيه المتسائلتين صامتاً لم تسعفه أية كلمة في النطق، ثم سمع كالمنوم صوت إطباق الحديد على معصميه.. في الخارج كان المكان قد حوصر، بعناصر (سرية المداهمة)، حاملين الأسلحة الفردية والرشاشات، على مرأى من أناس متجمعين قبيل الغروب.. تعلقت عينا طلال مذهولاً بالعجوز المكبل وأنفه النازف، وفي لحظات سرت بين الناس كالنار في الهشيم عبارة "خلية إرهابية"، تناقلها المتجمعون والعابرون.. جيء بأنفار آخرين من حي السفاحية، مكبلين ومعصوبي الأعين، وزُجوا جميعاً في سيارة (جيب) توقفت قريباً من المنصورية.

أحدهم صرخ في أذن طلال:

- سمعنا بمعرضك الوثائقي، ونحب أن نرى.

أشرعوا أسلحتهم وبدؤوا حملة تفتيش، نظر أحدهم إلى الفتحة في الجدار، حيث النسوة والصراخ، وأطل على دار شبه خربة، فارتد آمراً عناصره ليتجولوا في أنحاء المنصورية ويفتشوا في كل مكان، بدقائق قليلة صادروا محتويات خاصة كثيرة من المنزل، كحاسب طلال الشخصي وهاتفه الجوال وأوراقه وأمواله، والميزان، والغرامافون مع اسطواناته القديمة، إضافة إلى تمزيقهم للصور المعلقة في القاعة القبلية لشهداء ومعتقلي أهل الحي..

- كيف لم تصلنا تحركاتهم إلى الآن؟! هؤلاء أخطر من فرقة عسكرية.

تفوه أحدهم بهذه الكلمات، فيما سُمع آخر يقول مشيراً إلى أبو خالد:

- وهذا الختيار الشايب اسمه في القائمة، سيقودنا إلى باقي الخلية..

[34]

كانت لورا لاتزال ضيفة في بيت الست وداد، شهدت من زجاج الغرفة ما يجري، وعقد الرعب لسانها، ورغم ذلك اندفعت نحو الباب متوجهة إلى الدار الأخرى وهي تصرخ، هي والست وداد وريم، لكن ريم توقفت عن الصراخ فجأة ودفعت بلورا للاختباء والتواري عن الأنظار، واثقة من خبرتها في الأمان في مثل هذه الظروف، وما لبثت الست وداد أن صمتت هي الأخرى وتداعت إلى الأرض تشهق في شبه غيبوبة، وانهارت لورا منهكة، والتصقت بالجدار تبكي وتسمع دقات قلبها تضج في أذنيها. رائحة الخوف اختلطت برائحة التراب والخشب القديم. من خلال شق في الباب، عادت فرأت البزات السود والأخرى المبرقعة، وهي تجرجر أبو خالد الذي تهالك بين أيديهم، غير أن وجهه الدامي ظل يحمل نظرة تحد صامت، تبعه طلال يطوقه اثنان في طريقه إلى الباب. في تلك اللحظة، اختلط الخوف بمشاعر الذنب في نفس لورا. لماذا جاءت؟ هل كانت زيارتها فأل سوء؟ تساءلت وهي ترتعش: هل يمكن للوطن أن يكون بكل هذا الثقل الذي يخنق الأنفاس!

مساءً عاد فوزي إلى الدار، دخل في الصمت والفراغ، ولفته وحشة غير عادية، أطل من فتحة الدار ونادى باسم أبو خالد، ثم باسم الست وداد.. أطلت لورا تبكي، فيما ظهرت الست وداد وهي تضمها إلى صدرها محاولة تهدئتها...

عرف فوزي ما حدث، وأصابه الذهول، ثم الفزع من أنهم سيلاحقونه هو الآخر في الساعات المقبلة، فلا بد أنه أصبح مطلوباً الآن..

- لقد نجاك الله من أيديهم! غيابك كان لحظات ثمينة..

ستقول الست وداد لفوزي وهي تفصل في الخبر.. وقد أدرك فوزي خطورة ما جرى، فهذه فاتحة قهر غير محسوبة، سيتبعها اختفاء تام عن الأعين، وهذا ما كان، فقد ظل بعد اعتقال أخيه متخفياً وشبه لاجيء في دار الست وداد، في حين لاذت لورا بغرفة وليفتها

ريم، مذهولة دون أن تلتقط أنفاسها وتدرك سبب ما حصل، وظلت طوال ساعات الليل والنهار تخشى مداهمات أمنية أخرى تطال من بقي.

وهكذا خلت المنصورية من أي ساكن، وأمضى فوزي ساعات مريعة محمولاً على الأرق، منضماً إلى لورا في غرفة داخلية دفعتهما إليها الست وداد.. كان فوزي قلقاً بحيث ظل ينتقل بين الغرف مثل ظل، باحثاً عن مخبأ مناسب لا تطاله عيونهم فيما لو عادوا فاقتحموا المكان، في الوقت ذاته كانت ريم تتفقد النوافذ وتستمع لأي حركة مشبوهة في الزقاق. الست وداد أبدت صلابة لافتة، كانت تعد القهوة بيد ثابتة، وكأن كل حركة منها هي تحدّ للخوف.

- الخوف صديقنا القديم هنا يا بنتي.. لكننا تعلمنا أن نعيش معه دون أن نسمح له بقتل حياتنا..

قالت للورا وهي تقدم لها الفنجان.

ريم، التي بدت كأنما غادرها محيا الصبا فأعطت انطباعاً أكبر من عمرها، أخذت تشرح للورا بالتفصيل آليات التخفي والاتصال التي ابتكرها الأهالي أيام القهر والقذائف عندما حوصرت حلب الشرقية. لكن لورا كانت مشغولة بهاجس آخر..

- علينا أن نعرف من الذي وشى بهم، وما التهمة التي تلبستهم!

قالت لورا مسددة نظرة تحد. أضافت ريم:

- هناك عيون في كل مكان، حتى بيننا. الخيانة مع النذالة تنخرنا كالسوس.. عيون مزروعة حتى في الجدران.. هي نفسها التي جعلت الحاج صالح يختفي، رحل إلى تركيا كما علمت مما راح ينشره على جواله..

بعد أيام من الاعتقال، تمكنت لورا بمساعدة سلاف من معرفة مكان احتجاز والدها، في سجن كفر سوسة بدمشق. ومن ثم الحصول على تصريح بالزيارة كلف أساورَ ذهبٍ

ومبلغاً ضخماً من المال. الرحلة من حلب إلى دمشق، التي كانت تستغرق ساعات قليلة في الماضي، أصبحت رحلة عبر عالم آخر.. على الطريق حواجز أمنية تبتز الأموال، أشباح مدن، جسور مقطوعة، وقرى محترقة.. علقت سلاف على صمت لورا وذهولها:

- هذا هو الثمن الذي كان على البشر هنا دفعه، ثمن البقاء، ثمن المقاومة، أو مجرد الوجود.

عندما وصلتا إلى السجن، كان المشهد أشبه بدخول عالم تحت الأرض، عالم آخر غير الذي على سطحها.. الجدران العالية، الأسلاك الشائكة، الأبواب الحديدية التي تفتح وتغلق بأصوات فزع. في غرفة الانتظار الأشبه بالإسطبل، كانت نساء أخريات ينتظرن، بعضهن يحملن أطفالاً رضعاً، وملامح قهر مقيم.

عندما دخلت لورا غرفة الزيارة، لم تستطع التعرف على والدها في البداية. كان الرجل الواقف خلف الحاجز الحديدي أشبه بشبح. عينان غائرتان، وجه شاحب، يدان ترتجفان..

- لورا..

قال بصوت أجش.

- لا تخافي، الأهم أنكم بأمان..

غشّت الدموع عيني لورا وهي تنظر عبر الحاجز إلى ما تبقى من ملامح أبيها وجسده. حكى طلال بتقطع عن الأيام الماضية، عن ساعات القهر، عن الزنازين التي لا تتسع للجلوس، عن الضرب المبرح، عن الأسئلة التي تكرر نفسها: ما اسم منظمتك؟ من الذين تتعاون معهم؟ ما دور أبو خالد وما المهمة الموكلة إليه؟ أين الأسلحة؟ من يمول أنشطتك؟

- .. لكن يا بنتي!

قال وفي عينيه يلتمع شيء من كبريائه القديم..

- أكثر ما يؤلم ليس الضرب، بل محاولاتهم تحطيم كرامتك. يجبرونك على الشتم، على البصق في وجوه سجناء آخرين، على الاعتراف بأشياء لم تفعلها.. تصوري من وقت وصولنا إلى هنا جردونا من كل شيء، انتزعوا إنسانيتنا مع اسمنا، وأعطونا بديل ذلك رقماً.. أنا أصبحت مجرد رقم يا لورا.

في تلك اللحظة، فهمت لورا معنى جديداً للعذاب. ليس الألم الجسدي، بل طمس الكرامة بمحاولات قهر مستحيلة..

سألت لورا عن العجوز أبو خالد، فهمت من أبيها أنه بخير، لكن الرجاء عظيم بالخلاص وفك الأسر.

بعد الزيارة، عادت لورا مع سلاف إلى حلب وهي تبكي حاملة في قلبها جرحاً جديداً. لكن شيئاً ما كان قد تغير فيها. الخوف تحول إلى غضب، والغضب إلى تصميم.. في تلك الليلة، بينما كانت المدينة تغط في نوم مضطرب، جلست لورا مع عمها فوزي والست وداد وريم في قبو دار الوزان، على ضوء شمعة واحدة. الست وداد أحرق قلبها ما يعانيه أبو خالد من عذاب تعرف أنه لا يحتمله. فوزي رأى في اعتقال أخيه حدثاً فادحاً غير مبرر ولا مفهوم. كان قد حاول عبر وسيط في السفارة البرازيلية معرفة سبب ما حصل ولم يصل إلى أكثر من حائط سد، بل صار التخفي هو السلوك اللحظي، حتى غدا التفكير في السفر مرعباً يلوح من خلفه مصير طلال نفسه.. لكن لورا ذهبت في اتجاه آخر جعلت ريم تفتح عينيها دهشة وإعجاباً:

- لا يكفي أن ننقذهما.. علينا أن نواصل ما بدأه أبي. الأرشيف، دار الذاكرة، المساعدة، التعليم. هذا هو سلاحنا..

قالت لورا بصوت هادئ لكنه حازم. الست وداد رمقتها بنظرة اعتزاز:

- والله أنت أخت رجال، كما النساء هنا وأكثر..

في ليلة من الليالي، بينما كانت لورا تعمل على تحويل التسجيلات القديمة إلى (فورمات) رقمي، سمعت أصواتاً من ماضي حلب لم تسمعها من قبل، في تلك اللحظات أدركت أن والدها كان محقاً. الوطن ليس مكاناً، بل هو الصوت الذي ينتقل من جيل إلى جيل، القصة التي تروى في الظلام، الذكرى التي تنتصر على النسيان، وأن الصمت في مقابل ذلك هو الفناء لأنه لا يمتلك أي صدى.

بعد أيام عادت لورا وحيدة إلى مربعها في المنصورية، ونظرت من كشك غرفتها إلى سكون الحارة وعتمتها، سكون متحفز، مزقه سريعاً دوي انفجار بعيد. لكنها هذه المرة، لم تشعر بالخوف، بل أمسكت بتسجيلاتها، وعينها على مستقبل سترويه لأبناء حلب، حتى لو كان على أنقاضها. لقد وجدت لورا وطنها، ليس في المكان، بل في الصوت الذي يرفض الاختفاء، في الذاكرة التي تنتصر على الموت، في الأمل الذي يولد من رحم اليأس.. وكانت تعلم أن المعركة الحقيقية ليست لاستعادة الماضي، بل لخلق مستقبل يستحق كل هذا الألم.

بعد أيام.. وفي مقهى صغير بالقرب من ساحة باب الفرج، جلس أدهم مع بعض الفنانين الشباب ممن حضروا حفل بيت التراث في المنصورية.. ظل طوال الوقت شارداً يفكر في لورا، وعزم على أن يكون لقاء الخميس القادم مثمراً، انتزعه الشبان مرات من شروده، لكنه ظل يطير في سماوات أخرى، مذهولاً وغارقاً بمشاعر يجربها لأول مرة.. لورا السحر، التقاسيم الآسرة، غرق الروح، الرعشة الفريدة.. هز أبو رجب زرعة الريحان جانبه بكفه الحانية، فانتشرت رائحة خفيفة، وحلقت معها صورة لورا ساحرة وممزوجة بسحر القلعة، حتى باتا في خياله جسداً واحداً، فغاص أكثر في الحلم، وتشهى قدوم ليلة الخميس، فيما طار بخياله وقد طوى الأيام والساعات والدقائق، وحط هنالك في حضن الفرح ونجوى العمر.. في تلك اللحظات دخل الحاج أحمد المقهى وانضم إليهم، جلس

معتصماً بالصمت، ثم بانت دمعة في عينيه وحوقل، شد انتباه أدهم الذي حاول معرفة السبب، لكن الرجل كان فاقد القدرة على مجرد النطق..ثم أخيراً، همس بحشرجة لا تخفي رعباً:

- السيد طلال وأبو خالد.. وعدد من رجال الجلوم والسفاحية... صاروا عندهم..
- عند مَنْ؟

تقاربت الرؤوس بعيون مستفهمة وأصوات هامسة، تحاول انتزاع مزيد من الكلمات من فم الحاج أحمد، الذي خنقته العبرات وأفاد أنه قال كل ما يعرف. تسارعت الهواجس في رأس أدهم، وشعر كمن هبط من علو شاهق واصطدم بصخرة، أحس بالخطر يحيط به من كل جانب، مادام الوجه الأبرز في ليلة الخميس الفائت، وفكر أن ما حصل كان بتقرير قاتل تسرب إليهم، فالمعرض ليلتها كان أكثر من خَطِر. عاد وفكر بلورا وأن ما جمعه بها حتى الآن صار أشبه بسراب ينجلي عن عدم، وأن أحلام الحب قد تهاوت، فالغرس الذي رعاه ليزهو ويورق يتعثر تفتّحه الأول، لكنْ رغم ذلك لاح له في قلب المحنة خيط أمل، إذ ودَّ في تلك اللحظات أن يكون إلى جانب لورا، فتلك فرصة ربما تكون مواتية لجمع قلبيهما في ظل محنة أراد القدر أن تكون لحظة وئام لا فراق، لكنه عاد فوجد أخيراً أن ضرورة التخفي تفوق أي تفكير أو عمل.

[35]

كان طلال بعد أن تم إلقاء القبض عليه وسوقه معصوب العينين مع الآخرين، قد أصيب بحالة من الصدمة والذهول لهول المفاجأة وصلف الأنفار وتوحشهم.. بعبارة واحدة حاول أن يسأل عن السبب، وفي الحال تلقى لكمة حاقدة، ودفع به أحدهم باتجاه سيارة الجيب القريبة، بعد أن كبل يديه أمامه.. كان أبو خالد وآخرون قد حُشروا قبله في السيارة مكبلين ومعصوبي الأعين.. وأحيل الجميع مباشرة إلى دمشق عبر رحلة طويلة انتهت في فرع المخابرات الجوية.. هناك وبعد أيام كما لو أنها شهور اقتيد طلال للتحقيق، ظل صوت المحقق فحسب يسأل ويدقق ويواجه طلالاً بأقوال أبو خالد المزيفة، كي يعترف بمعلومات وأسماء ووقائع، ما عرف منها وما لم يعرف، كعادة المحققين، بينما كان طلال مستغرقاً في حالة الصدمة، لا يدرك ما يجري حوله. كان الاعتقال آخر ما خطر بباله كما أخبر لورا في الزيارة الوحيدة التي توصلت إليها بعد عناء.. أبكاها وهو يخبرها كيف حُرم من الطعام والدواء الدائم الذي يتناوله، وجُرّد من ملابسه وبقي بسروال قصير يكاد لا يستر عورته، ليعاود المحقق الكرة مرات ومرات، متفنناً بتعذيبه، ليؤذيه نفساً كما يفعل جسداً..

لم يفكر طلال للحظة من احتمال، وهو الساعي لترميم أحجار الروح، أنه رأس في عصابة إرهاب كما هو عنوان التهمة التي وجهت إليه. رجح بعينين مغمضتين وهواجس سوداء أن تقريراً كيدياً بتحرير قريبه رياض جعله يسقط في أيديهم.. لم تشفع له جنسيته البرازيلية هذه المرة، وخلال مئة يوم تناقص وزنه من ٧٥ إلى ٤٠ كغ، لحظة تحويله من الفرع الأمني الذي اعتقله إلى القضاء العسكري، ثم إلى السجن، ليتم استدعاؤه عاريا بسروال قصير في يوم صقيعي من شهر شباط ٢٠١٨، حيث أبلغه السجان أنه محال لتنفيذ حكم الإعدام فيه.. تماسك طلال وصمد.. وتم صف المعتقلين رتلاً، وخرج الرتل من القبو المعتم والزنزانة الانفرادية والجميع معصوب العينين وبينهم طلال صاعداً الدرج، تابع طريقه نحو المدخل، تسلل الضوء إلى عينيه من تحت العصابة، ولسعت

جسده ريح غربية باردة وبقايا ثلج على أرض ساحة مدخل الفرع الأمني.. أمر السجان الجميع بالانبطاح أرضاً، كوداع أخير للمكان، ومتابعة إذلال لهذا الرجل الستيني بمظهره المريض وتثاقل حركته، مع رفيق اعتقاله العجوز أبو خالد، وصاحب طفولته في السفاحية، وآخرين لا تعرف جريرتهم.. نفذوا رغبة السجان بالتمدد على الثلج عراة في صقيع شباط.. ساعة مرت كأنها سنة على درب الآلام نحو معتقل جديد، وحضرت شاحنة صغيرة مغلقة، صرخ السجان على الرتل للصعود، وبدأ الضرب والدفع دون أن يعرف أحد كيف يحمل جسده المتهالك، أو يحميه من الوخز بالقضبان..أخيرا صعد الجميع.. اثنا عشر رجلاً حُشروا في صدر الكبين، معصوبي الأعين، منهكي القوى، يرتجفون برداً.. وتحركت الشاحنة وسط جو من الضجيج، بينما رفع السائق صوت المسجل بأغنية لعلي الديك، إضافة لأصوات السجانين المسلحين المرافقين الذين يحملون على أكمام بزاتهم شعار "مكافحة الإرهاب"... تقدم رقيب منهم وطلب فحص "أماناتهم" (أغراضهم الشخصية) التي استلموها من الفرع الأمني عند ترحيلهم.. أفرغ السجان أشياء في جيوبه، سرق من كل معتقل ما تبقى معه من مال وبعض المتعلقات والموبايلات والساعات وكل ماله قيمة.. وصلت الشاحنة إلى فرع الشرطة العسكرية، رفعوا العصابات عن الأعين، فرأى طلال وجه السجان للمرة الأولى:

- لقد أحالوكم للمحكمة!

نطقها أحد المرافقين.. وبدأت قصة جديدة في سجن فرع الشرطة العسكرية في دمشق، لأيام، في مكان، في مبنى غص قبوه بالقاذورات والنفايات، وفي مهاجع متخمة بأعداد هائلة، بمئات من البشر المتروكين منذ أشهر وسنوات، مُوْدَعِينَ بصفة "أمانات" لصالح الأفرع الأمنية الأخرى ومحاكم الإرهاب، بانتظار الترحيل إلى السجون والمعتقلات والمحاكم.

بعد ثلاثة أيام صرخ السجان على مجموعة أسماء، كان طلال وأبو خالد وآخرين بينها.. كدسوهم في "سيارة نقل اللحوم"، نقلوهم نحو سجن (عدرا) عبر طريق طويل.. وصل

طلال سجن عدرا منهكاً مريضاً شبه عارٍ، اصطكت أسنانه يطلب الدفء، دثره أبو خالد ببطانية إضافية دون فائدة، ساءت أحواله بعد ساعات ودخل في غيبوبة وازرق جسمه الشبح، أبو خالد استنجد بالسجان مرات دون طائل، طلب إسعافه فقيل له: كل خميس هناك سيارة إسعاف تنقل المرضى إلى المشفى، إذا شاء أن يموت فليفعل، وإلا فلينتظر مع مرضى آخرين..كان على العجوز أبو خالد أن ينتظر ثلاثة أيام أخرى ليتم نقل طلال إلى المشفى الموعود.. وفعلاً في صباح الخميس وصلت سيارة إسعاف يتقدمها زمور خطر، نُقل إليها المرضى جرّاً أو على حمالة، انطلقت السيارة عائدة بهم إلى مشفى تشرين العسكري، هناك أُلقو في الممرات مع حشود من المرضى والجرحى وسيول من الدماء والبول والبراز.. طلال السادر في غيبوبته صحا مرة أو مرتين، أرسل نصف نظرة إلى جار الطفولة في السفاحية، الجار المريض هو الآخر كلّم طلالاً دون أن يتلقى أي رد، حتى طلب إليه أن يحرك يده إن كان يسمعه، طلال لم يفعل..

- فَصَلْ.. الموت جبة من ذهب، ادعُ له بالرحمة..

قالها مريض قريب.

مرت ٢٤ ساعة أخرى في هذا "السجن" الأخير، لم يطلب طلال أكثر منها، ومات.

[36]

حاول فوزي في الخفاء عبر جواله، ومن خلال أرقام أمنية كان قد تسلح بها، أن يتوسط لدى السفارة البرازيلية في بيروت لمعرفة مكان وجود طلال وسبب اعتقاله.. لم يستطع التوصل إلى نتيجة ما، لكنه علم أخيراً أن جهاز أمن الدولة قدم للسفارة في النهاية كتاباً خطياً يفيد بأنهم ساعدوا السيد طلال المواطن البرازيلي في المرة الأولى، فتم إطلاق سراحه مع تعهد من السفارة أن يقطع صلاته المرصودة بمجموعات مشبوهة تمتهن التعامل مع الإرهاب، بما في ذلك بيع السلاح وتهريبه، ومع دوائر داعمة وضالعة في المساندة المالية والعينية.. وأن السفارة في النهاية لن تستطيع الاستمرار في كفالته، مع صيغة اعتذار شديدة التهذيب..

عادت لورا بوساطات نسائية، ومحاولات قادتها سلاف وريم، بحيث توصلت الاثنتان إلى معرفة المكان الأخير الذي تم فيه احتجاز طلال وأبو خالد في دمشق.. وبدأت جهود أخرى تبذل في سبيل الحصول على مجرد تصريح بالزيارة..

كانت لورا قد توسطت لدى متنفذ أمني لمعرفة مكان تواجد أبيها، ومن ثم الموافقة على تصريح آخر بالزيارة لقاء مبلغ ضخم من المال، لكن الرجل بعد أن تلقى نصف المبلغ سلفاً يبلغها بأسف بعد صمت مريب بأن حالته الصحية لا تسمح، ما زاد في أحمال الأسى الذي يعتصر قلبها... أما الخبر الحقيقي فقد جاء بعد أيام، أبلغته سفارة البرازيل لفوزي بواسطة جواله.. الخبر كان صاعقاً، حددوا سبب الوفاة بأزمة قلبية، وامتنعوا عن تسليم جثمانه، معتصمين بالصمت رغم وساطات متعددة، لكن السفارة ظلت تطالب بالجثمان دون التوصل إلى جواب مفيد، سوى أنه توفي في مشفى تشرين العسكري يوم كذا.. لكن المحامية سلاف التي أخذت على عاتقها أمر البحث عن مصير طلال في المشفى، غادرت إلى دمشق ووصلت إلى المشفى بمهمة قانونية موجهة من القصر العدلي في حلب، لكنها ضاعت هناك في ملفات كثيرة أمامها، وتركت وحدها في مخاض غامض أوصلها بعد ساعات إلى يأس مطبق، فلم تستطع العثور على اسمه في أي

سجلات قدمت لها، حتى في التاريخ المصرح به ليوم الوفاة، فأعلنت عجزها عن الاستمرار في البحث، وعادت يسبقها الإخفاق إلى حلب.

انهارت لورا، وهي تستمع إلى قصة الطريق المسدود الذي وُضعت سلاف فيه، وصار الفقد فقدين، موت أشبه بقتل صراح، وأثر يضيع في المجهول، ما زاد في شرخ الحزن وشعور الفقد، شعور باتت تحكيه جدران المنصورية ومقعد صباح فخري والدالية وشجرة الليمون، وشتلة الفستق اليتيمة، فقدٌ لا ينفع معه أي عزاء لكل من تعرف إلى طلال أو جالسه في سهرة الخميس أو في المقهى والحارة.. من جهته استمع فوزي إلى سلاف وفاض الدمع في عينيه، تمنى لو أنه وافق رغبة أخيه بالسفر إلى العائلة هناك، وهذا مازاد من شعوره بالتحسر، فعدَّ مجيئه إلى حلب بداية رحلة انتهت بثمن موجع.. أما النسوة فقد أقمن مجلس عزاء ساده اللباس الأسود في بيت الست وداد، التي سألت سلاف عن الجثمان، وفي البال أبو خالد لا يفارق ليالي الدموع والحسرات، أبو خالد المغيب في سجونهم، ظل هاجساً لا يفارق الست وداد، التي حاولت بدورها الوصول إلى رأس خيط يقودها إليه دون فائدة. أوكلت أمر البحث لسلاف وريم، أفرجت عن أموال مجزية في سبيل معرفة مجرد أخبار ما عنه، ولم تصل إلى نتيجة تذكر.

لورا تركت غرفتها وأخذت تجالس عمها أكثر الأوقات، تواسيه وتستمد منه سلوى في آن معاً، بعد أيام دخلت في حالة من الصمت الحزين، صمت ظلت تشحن به قواها وصبرها، فقد أصرت أن تبقى في حلب، أبدت تماسكاً عجيباً لا تشبهه أي إرادة، استدعت أخويها وأمها ومكثت تنتظر، شعرت بخيط خفي يشدها الآن إلى العيش في دار الجلوم على الرغم من هواجس خلّفها الفقد لم تكن قد جربتها. كان الفقد الذي تركته الوفاة مختلفاً، لم يكن مجرد غياب جسد، بل انزياح عالم كامل من معنى. وحلب بالنسبة إليها لم تعد مجرد مدينة في الخرائط أو ذكرى في دفاتر الذكريات، بل أصبحت حضناً لها، وجرحاً لم يندمل في الآن معاً، بل أسئلة لا تهدأ في أعماقها. كانت المدينة نفسها ندبة في روحها، وسؤالاً مفتوحاً في أحشائها لا يكفّ عن النبض، بل أضحت كأنها تلك النار التي

تظل متقدة في قلب الشتاء البارد، لا تذوب ولكنها تحرق بهدوء. وفي مساء من حزن وانتظار جلست وحيدة على سطح المنصورية، تنظر إلى أضواء المدينة المتناثرة الخافتة، متسائلة: هل يمكن للإنسان أن يحمل وطنه في قلبه وحده! وهل يكفي الحنين إلى الحرية لاستعادة أرضٍ هجرها الزمان! هل الوطن هو المكان، أم هو ذلك الشعور الغامض الذي يتغلغل في الدم؟ وهل الذاكرة قادرة على أن تكون ملجأً حين ينهار الواقع!

في صمت الليل العميق، تجولت أفكارها بين صور طفولتها المترفة في ساو باولو، ورائحة التراب والحرائق التي أزكمت أنفها هنا في حلب، بينما غام المستقبل الذي رُسمت خطوطه العريضة منذ تسلمت شهادة موت أبيها هناك في أقبيتهم.. وتمنت مجروحة القلب بشعور الفقد، أن تُولد مدينة جديدة من تحت الحطام، كحلم أبيها، كحلم المدينة نفسها. وحدثت نفسها: "أنا أومن أن التاريخ مرآة.. لكنه مرآة مشروخة، تعكس أشلاء ما كان، وأطياف ما يمكن أن يكون. من يجمع الشظايا؟ من يعيد ترتيب الصورة؟ هل نحن، بضعفنا وأحلامنا، أم الزمن العابث الذي يلعب بالنهايات؟ وهل يمكن لتجار الأمس، أولئك الذين باعوا واشتروا في سوق الأوهام، أن يبنوا غداً على أنقاض حاضر ينهار كقلعة من ورق؟"

في هذه التساؤلات، وجدت لورا نفسها في مواجهة مع ذاتها: هل حضرت إلى حلب بغية مكاسب ما، أم حارسة لذاكرة شعب كامل؟ هل ستستسلم لمصير مجهول، أم ستعمل من أجل حلم مستحيل؟ وهل حبها لحلب كان حباً لذكرى أبيها فحسب، أم هو عهد بأن لا تنسى الجذور مهما علت موجات الحقد؟

أما حلب، فلم تغلق أبوابها تماماً، لكنها ظلت تهمس بصمت مرير، تهمس عن أطفال فقدوا بيوتهم، عن آباء فقدوا أبناءهم، عن ضحايا براميل متفجرة خلّفت صمتاً مدوياً، عن مقابر جماعية تحكي قصصاً لم تروَ بعد، عن وطنٍ يُقتل في صمت، لكنه لا يموت. وتراءى لها أن هذه المدينة ستظل تنتظر من يعود ليعيد إليها نبضها، وأن الزمن سيكتب

لها نهاية أخرى، لا يريدها الطغاة. وتساءلت إذا ما كان ذلك الشوق المتقد إلى الحرية، يكفي لاستعادة أرض سرقها الزمن وأعاد تشكيلها على هيئة جرح..

في لحظة ما، أدركت لورا أن لا إجابات تنتظرها، بل الأسئلة ذاتها هي ما تبقّى، تعانقها في كل لحظة، ترسم لها خارطة غير مرئية بين الفقد والأمل، بين الرحيل والبقاء، بين الذكرى والواقع، ومن خلال ذلك أيقنت أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعيش وجوده كسؤال، بحثا عن معنى لوجوده، لأن سؤاله يحمل ارتياباً وقلقاً على مصيره.

السماء فوقها كانت مظلمة، لكن نجمة وحيدة كانت تتلألأ خافتة، وكأنها تهمس: الحياة ليست سوى انتظار، والانتظار هو المعنى الوحيد الذي لم يسلبوه منا بعد..

تركت السطح ولاذت بسكينة غرفتها، وفي أعماقها عاد ذلك السؤال الأزلي يدور: هل الوطن هو المكان الذي نعود إليه، أم هو المكان الذي لا نغادره أبداً حتى وإن ابتعدنا؟ وهل الحكاية تستمر فقط في الصمت، أم أن الفجر ينتظر من يكتب فصله الجديد؟

وهكذا، بقيت لورا حاضرة مع من رحل: أبيها وأجدادها، مع حلب، وحلب ظلت معها، في قصة لم تنته، في فصل مفتوح لكل من يبحث عن وطن بين جرح وحلم.

لورا تعرف الآن بيقين أن والدها لم يعد إلى حلب فقط كمن يستعيد جغرافيا قديمة، بل كمن يبحث عن نفسه بين أطلال ذكرياتٍ عميقة وأحلامٍ لم تكتمل. عاش المدينة في أيامها الجميلة، ثم رأى كيف تحولت إلى ساحة صراع دامٍ لا يرحم، مدينة احتدم فيها القتل والتشريد تحت القذائف وبراميل الموت التي لا تميز بين طفل وشيخ.

في وقت متأخر وصلها عبر بريدها الإلكتروني ملف المنحة الفرنسية لتملأ استماراته وتباشر بإجراءات السفر، فخاضت صراعاً فكرياً عنيفاً، تجاذبها فيه الاستنكاف أو القبول، لكنها حسمت رأيها أخيراً بتفضيل السفر على البقاء بين ذئاب وقتلة، كما صرحت لعمها فوزي، الذي أيد سفرها وباركه. لم يكن قرارها بالسفر وليد تفكير لحظي، بل ثمرة ليالي سهد قضتها تتقلب على فراشها في المنصورية، تستمع إلى دوي القذائف البعيد كأنه نبض مدينة تحتضر. كانت دوافعها متشابكة كخيوط غير مرئية، لكن الدافع الأكبر ربما كان البحث عن سلاح مقاومة، تجيد استعماله هي ولا تجيد غيره.. لا سيما أنها أدركت أن البقاء في حلب يعني أن تصير شاهدة صامتة على الموت، أما الرحيل فكان فرصة لامتلاك أداة حقيقية لقهر النسيان. رأت أن المنحة الفرنسية في مجال التوثيق الرقمي للتراث الثقافي ستمنحها ما وصفته في مفكرتها الخاصة بـ"القلم الذي لا ينكسر تحت القصف ولا يصدأ". كانت تريد أن تتعلم كيف توثق ما يُدمَّر، وكيف تحفظ ذاكرة مدينة تصارع العدم كل يوم. وفي كل ذلك كانت ترى في سفرها استكمالاً لمشوار والدها الذي عاد ليبحث عن نفسه بين أطلال حلب، فترحل هي لتكمل ما بدأه. ثم إن دائرة الخوف كانت قد حاصرتها من كل جهة، حتى صارت حلب سجنها النفسي، كانت كل زاوية تذكرها بمن رحلوا، وكل صوت قذيفة يجعلها ترتجف. لقد أدركت أن بقاءها لا يخدم أحداً، وأن الرحيل ليس جبناً حين يكون الاستمرار انتحاراً بطيئاً. وقد صادف وصول القبول ذكرى أربعين والدها فأقامت حفل تأبين صغير،

برعاية العم فوزي، وجعلته في الآن نفسه مناسبة وداع قبل الالتحاق بالمنحة الدراسية الفرنسية. دعت أحبة طلال، ومن صاروا أحبتها في حلب، في شبه تجمع سري..

فتحت مفكرة جوالها وقرأت وسط جو من الصمت والترقب:

" ... حلب.. حلب.. أكثر ما كان أبي يذكرها وهو في ساو باولو، وتحديداً بيت جده في الفرافرة، والآخر هنا في الجلوم، فضلاً عن بيت أخواله في القصيلة، ضمن حلب القديمة، وكتب لي في إحدى رسائله خطاب عشق موجه للأبواب.. للخشب.. للأدراج.. للعِتق العتيق المشغول بالروح.. للدانتيلات الحجرية الهائمة فوق الباب والشُبَّاك.. للأقواس الحانية.. للسقف الخشبي الصبور.. لعصافيره الأبدية..لنشيدها وقت الغروب، للأشجار القديمة الخارجة من نواة الأرض.. هي مدينةُ المدن.. أمُّ الروح.. لا تنتهي.. ولا يُنتهى منها وفيها.."

توقفت تداري غصة ودمعة، التفتت إلى عمها فوزي وقد احتقنت عيناه بدموع عصية هو الآخر، فتقدمت منه وارتمت على كتفه لا تريد أن تنتهي لحظات الوداع، أحست بحزن غامر وعانت من لحظات مؤثرة لمجرد التفكير بأنها ستغادر هذا الجمع الصغير إلى مطار بيروت، ومنه إلى باريس، حاملة غصة ألم وفراق، مودعة أحبة المنصورية، ظلت تلاحق العم فوزي بنظراتها، كانت عيناه ماتزالان ترمقان دهليز السلاملك باستمرار. متوقعاً في أي لحظة أن يداهم المكان جنود أو ميليشيات. عادت فاقتربت منه يثيرها ما به من قلق وشتات، نظر إليها بوجل، مفرغاً في الحال أحمالاً من الأسى تعذبه:

- والدك كان يعرف أن عودته مغامرة. كنت أحذره بعد لقاء كل خميس... قلت له: طلال، هؤلاء لا يعرفون الرحمة. لكنه كان مصراً. قال لي ذات مرة: يا فوزي، إذا لم يعُد أمثالنا إلى حلب، فمن سيذكر أنها كانت يوماً جميلة؟

ارتسمت دمعة على خد لورا وسألت:

- هل تخشى أن تلقى مصيره؟

ضحك ضحكة قصيرة جافة:

- أنا أخشى كل لحظة يا بنيتي. اسمي المختلف في جواز السفر حتى الآن أنقذني، لكني بقيت أخاف، وأنا أعلم أن الخوف لا يمنع الموت، وقد يمنع الحياة. أنا أختبئ وأسعى لفرصة مناسبة للسفر، ليس جبناً، بل لأني أريد أن أروي قصته... قصتكما... قصتنا جميعاً.

فكرت لورا بالعجوز أبو خالد، وطالعت الأسى في وجه الست وداد، ظل اعتقاله بالذات لغزاً محيراً يؤرقها، أشفقت لحاله، وتذكرت قصته الدامية وهول الفاجعة التي لحقت به، وقادتها قدماها لغرفته تستنطق ذكراه، بل لعلها تحتفظ بشيء من متاعه للذكرى، لا شيء هناك استرعى انتباهها، سريره المتروك دون ترتيب، الوسادة التي لاتزال تحتفظ بطبعة الرأس، مشجب ملابسه، خزانة متاعه، كتبه، طاولته والأريكة.. وحده الفقد كان محلقاً في فضاء الغرفة الساكنة.

عادت إلى الست وداد، وسألتها إذا ما وصلها أي خبر عنه، أدارت وداد كفيها بحركة نفي ويأس، وانتبهت لورا لحظتها إلى تلك المرأة التي شاخت بسرعة تحت وطأة ما حدث، والتي صارت بعينيها المتعبتين، بسبحتها وملفحها الأبيض أيقونة للصبر الحلبي. تقدمت لورا إليها مودعة فمدت وداد يديها المرتجفتين وضمتها بقوة، وقالت بصوت تخنقه العبرات:

- يا لورا... أنتِ مثل ابنتي. لا تنسينا.

في تلك اللحظة دخلت ريم، وسرعان ما أجهشت بالبكاء فجأة، وقالت بصوت مبحوح:

- لورا... من سيعلمني الفرنسية الآن؟ من سيقرأ لي الشعر؟

ابتسمت لورا بوجع، ونظرت ثم حنَت رأسها لتقبل جبينها قبل أن تندفع هي الأخرى للبكاء.

سلاف، التي وجدت لورا في قصتها المستعصية على الحل صفحة أخرى اكتظت بسطور الحزن. قبلتها وقالت مواسية:

- لنا لقاء سلاف..
- ليته يكون.. أرجو ألا يطول الوقت..
- بالتأكيد لن يطول. سأعود.. سأعود بحروف تروي ما دُفن تحت الركام، وبكلمات تخلد من رحلوا دون وداع.

قالت سلاف بمرارة مكتومة:

- في كل الأحوال حسناً تفعلين يا لورا. اهربي من هذا الجحيم قبل أن يبتلعك.

لم ترد لورا على كلمة "اهربي" بالانزعاج، بل أمسكت بيدي سلاف وقالت:

- أنا لا أهرب يا سلاف، أنا أذهب لأتعلم كيف أوثق كل ما حدث هنا. كيف أحكي للعالم قصة بلاد نُحرت على مذبح الطائفية والعدوان.

تمتمت سلاف بحسرة:

- حلب! صارت كلمة ثقيلة على اللسان.
- سأكتب عنها، عنها وعن خطيبك، وعن كل من غابوا دون أثر، سأجعل للصمت صوتاً.

نظرت سلاف إلى لورا بعينين ذابلتين لكن فيهما ومضة أمل خافتة:

- أتعلمين يا لورا... أحياناً أعتقد أن البقاء هنا أصعب من الرحيل. أنت شجاعة برحيلك، وأنا... أنا هنا شجاعة ببقائي.

ابتلعت لورا كلمات نافلة تراها تحمل عزاءً لا طائل من ورائه، واستعاضت عنها باحتضان سلاف التي رفعت رأسها ببطء لتظهر عيناها الحمراوان، واللتان رأت فيهما لورا أكداساً

من الحزن وسطوراً من الخيبات، بل غضباً هائلاً، ليس غضباً من موقف وداع، بل غضباً من الحياة التي سرقت كل شيء. فاضت دموع لورا فضمت سلاف إلى صدرها، وشعرت بجسدها النحيل يرتجف، كساق شجرة في عاصفة. انتبهت الست وداد إلى ذلك الوداع الحميم، قالت:

- هذا مشهد عزاء لا مشهد وداع، البنت يكفيها ما بها يا سلاف.

كفكفت سلاف دمعة وقالت:

- كنت أحب لو ظلت حلب بيتها يا ست وداد.

راحت عينا سلاف الذابلتان تتابعان لورا وهي تتنقل بين الحضور، وتتلقى تعازيهم وكلمات الوداع بقلب موجوع لكنه مملوء بالعزيمة. كانت تتمنى لنفسها مثل هذا الرحيل، وتعلم في الوقت ذاته أن رحلة لورا قد تطول، وأن العودة قد تكون حلماً بعيد المنال في وطن لم يعد يعرف إلا لغة الرحيل.

أما أدهم فقد تقدم من لورا بلهفة لا تخفيها التماعة عينيه، ومسحة الحزن البادي فيهما، الجولة في القلعة لا تفارق خياله، بادلها نظرات ناطقة، اندفعت كلمة "أحبك" على لسانه، لكنها تعثرت ووقفت هناك، لا تريد أن تنزلق.. وأدرك في لحظة خاطفة أن حبه لها ولد ليموت، وأن رحيل طلال الموجع هو ما جعل الحكاية تنتهي في فصلها الأول، حتى قبل أن تتشكل وتنمو.. ومدت يدها فتلقفها باليدين، شعر في تلك اللحظة برجاء حار ظل معلقاً ينوس في القلب فحسب. تلعثم بكلمات لا تريد أن تكتمل، ثم فاه بعبارة صريحة:

- سأفتقدك.. لورا الغالية..

ردت بنظرة ستظل لغزاً عصياً يطالعه في كل حين، فانسحب إلى شرفة الغرفة الصغيرة، ينظر إلى ليل حلب الأسود الذي لا نجوم فيه. تبعت لورا خطواته بصمت، ووقفت إلى

جانبه دون أن تنبس ببنت شفة. صمت طويل كان أثقل من ألف كلمة، ثم التفت إليها فجأة وقال بصوت لا تكاد تسمعه:

- أتذكرين يوم القلعة؟ يوم نظرت إليكِ وأنا أقول في نفسي.. هذه هي.

لم تجب. فقط أزاحت خصلة شعر عن وجهها. تابع:

- كنت أظن أن الحرب ستأخذ مني كل شيء، لكني لم أتوقع أن تأخذ فرصة أن أقول لكِ...

أسكتته لورا إذ همست:

- لا تقل شيئاً يا أدهم. بعض الأشياء أجمل عندما تبقى معلقة في الهواء، مثل أغنية لم تكتمل.

تنهد بعمق وأمسك بيدها. شعرت بدفء كفه المرتجفة، وعرفت لو كانت الظروف مختلفة، لو لم تكن حلب ساحة موت، لكانت هذه البداية... لكنها الآن هي النهاية.

أخيراً قال:

- سأفتقدكِ يا لورا... ليس لأنكِ جميلة، ولا لأنكِ مختلفة، بل لأنكِ جعلتني أشعر أنني إنسان في مدينة تريد أن تجعل الجميع وحوشاً.

تركت يدها بين يديه لحظة، ثم انسحبت بهدوء وهي تهمس:

- احفظ حلب في قلبك يا أدهم. اربح هذه المعركة على الأقل.

تقدم أدهم خطوة، ثم تراجع. نظر إلى الأرض ثم إلى السماء المغطاة بالغيوم الداكنة. وقفا صامتين. حولهما كان الناس يتحركون كالأشباح، كل واحد منهم يحمل حزنه الخاص. عندها فقط، شعر أدهم أن هذه هي فرصته الأخيرة، أو ربما لن تكون. قال فجأة:

- أتذكرين يوم القلعة؟

ابتسمت بوجع:

- كيف أنسى؟ كنت تخبرني عن تاريخ المدينة وكأنك كنت تعيشه.
- كنت أتخيل وأقول أشياء أشبه بالكذب...

اعترفَ فجأة.

- لم أقرأ عن حلب كثيراً. كنت فقط أبحث عن سبب لأبقى بجانبك.
- كان كذباً حلواً يا صديقي!

بقي الصمت ينوس بينهما لحظات، ثم افترقا.

[37]

في صباح اليوم التالي، وقفت لورا أمام مرآة غرفتها في المنصورية، تأملت في ملامحها كما لو أنها ترى وجهاً لا تعرفه، لم تكن بهذه الصورة عندما حلت في حلب، أصبحت عيناها تلهجان بحزن جلي، واكتسى وجهها بمسحة من قسوة وغضب.. استدارت تلملم آخر أغراضها في حقيبة صغيرة، بينما ظلت حلب في ذاتها تئن تحت وطأة الذكريات، لكنها كانت تعلم أن رحلتها إلى فرنسا ليست هروباً، بل هي عبور إلى عالم آخر قد يمنحها سلاحاً تعيد به إلى حياة الوطن شيئاً مما سُلِب.

كان العم فوزي قد ودعها في الصباح دون أن يرافقها، خشية توقيفه في أحد حواجز الموت المتناثرة على طول الطريق إلى دمشق وبيروت، ودعها بكلمات تاهت عنها وقد أغلقت عينيها وهي تستمع إلى صوت والدها في رأسها: "حلب باقية فينا حتى لو غبنا عنها". كانت رحلتها بحثاً عن سلاح في مواجهة النسيان، وفي انتظار يوم يعود فيه الوطن حراً، كما حلم والدها.

قبل أن تصعد إلى السيارة التي ستقلها إلى بيروت، كانت قد التفتت للمرة الأخيرة إلى المنصورية، "قلعة أبيها الصغيرة"، كما سمتها. في السماء كانت أكداس من الغيوم تخفي وراءها شمساً باردة، وسمعت في تلك اللحظة صوت والدها وهو يقرأ مقولة أحبها: "الوطن ليس أرضاً نتركها، بل قصة نحملها معنا أينما ذهبنا."

من فتحة الجدار نادت الست وداد مودعة، هرعت إليها وداد مع ريم، كانت لحظة من عناق ودموع، لكن ابتسامة الثقة لم تفارق وجه لورا، فيما أشارت وداد إلى حقيبة لورا لتفتح، وأودعت فيها ما عدته أغلى تذكار: نسخة مخطوطة أثرية مذهبة من القرآن الكريم.

أما العم فوزي، فبقي في الكشك المطل على الزقاق يراقب السيارة حتى اختفت عند أول منعطف، ثم همس لنفسه بكلمات طلال الأخيرة التي لم يخبر بها لورا: "البعض يموت في

الجسد، والبعض يموت في الذاكرة. الأبطال الحقيقيون هم أولئك الذين يرفضون أن يكونوا موتى في الاثنين معاً.". ثم عاد إلى عزلته في دار وداد، خائفاً لكنه حي، يحترف التخفي كي لا يضاف اسمه إلى قائمة الأموات الذين يملؤون جدران حلب كل يوم.

في الطريق إلى مطار بيروت مرت السيارة بدايةً على الأماكن التي طالما تحدث عنها والدها: القلعة المتمنعة الرابضة في عليائها، الجامع الأموي الصريع، سوق المدينة الخرب، حارات حلب العتيقة، أطلال الأبنية والبلدات المدمرة، ركام القرى المسحوقة الهاجعة على جانبي الطريق حتى دمشق.. كل حجر على الطريق كان يحكي قصة، وكل زاوية كانت تختزن ذكرى.

على متن الطائرة التي أقلعت، نظرت لورا من النافذة إلى الأرض التي راحت تبتعد شيئاً فشيئاً. كانت تحمل معها غصة ألم وفراق، لكنها أيضاً تحمل إرثاً من صمود. كانت تعلم أن رسالتها لم تعد مجرد دراسة في فرنسا، بل أصبحت مهمة للحفاظ على ذاكرة وطن، وسرداً لقصة لم تنته فصولها بعد.

أما سلاف، وقد أوحشها وداع يضيف فراقاً إلى فراق، فعادت في مساء الوداع إلى شقتها الفارغة، وجلست إلى مكتبها، حيث تنتظرها قضايا لا تنتهي، ووجوه لا تزال تبحث عن عدل قد لا يأتي. كانت تعلم أن انتظارها لخطيبها قد أصبح انتظارين، إذ أضيف إليه سفر لورا التي اعتادت صحبتها، وكلاهما غدا حلماً مستحيلاً في زمن المستحيلات، لكنها أيضاً، وبصلابة لم تفتقدها يوماً، كانت تعلم أن الأمل هو آخر ما يموت في قلوب من عاشوا في حلب. وعلى هذا النحو ظل الانتظار، هناك في شقتها، جالساً على كرسيها الخشبي أمام النافذة، يراقب الطريق، ويعتصم بالصبر.

[39]

استدراك:

في يوم التحرير 8\ 12\ 2024 يخرج أبو خالد من سجن (عدرا) فاقد الذاكرة، يردد كلمات مبهمة.. لم يتعرف إليه أحد، ظل هائماً بين الجموع الهائمة، كان الأكبر سناً من بين جميع السجناء، لا أحد يعلم عن التهمة التي ألصقت به، أما هو فقد اصطبغ كله بالشيب، وتضاءل حجماً وغارت عيناه وعارضاه.. كانت سلاف ببادرة طيبة منها قد تسلمت طريق دمشق في صباح اليوم الأول من التحرير، كانت يد الرحمة التي تلقفت العجوز من ساحة السجن مساءً، تعرفت إلى شكله بصعوبة بين سجناء أشبه بمومياءات، ثم تأكدت من هويته بتعريف أحد رفاقه، طارت به وبالفرحة إلى حلب، وقصدت حارة الجلوم، عائدة به إلى بيت الست وداد، التي فوجئت بكائن غريب أشبه بالشبح، فبكت قهراً وخيبة، كلمته دون أن تتلقى أي إشارة تنبئ بمعرفته إياها، لكنها عادت وتطامنت تدفعها الشفقة وأيام العشرة والوئام، فظلت متعهدة إياه بالرعاية طوال الوقت، وبالتناوب مع ريم، لكنه ظل يعيش في عالم آخر، وبين لفتة وأخرى كان يرتد إلى وعيه، دقائق معدودة، مشرفاً على عالم زاخر بالوجع، مردداً اسم (طلال).

تمت

نهاية 2025

محمد شويحنة

كاتب ورائي سوري

ولد في حلب عام 1955 وحصل على إجازة في اللغة العربية وآدابها ثم دبلوم الدراسات الأدبية، وماجستير في الأدب العربي الحديث.

عمل مدرسًا في ثانويات حلب منذ عام 1980، وفي جامعة زايد (دبي) في الفترة 1999-2002.

يكتب الرواية والقصة القصيرة والدراسة الأدبية والقراءة النقدية نشر في عدد من الصحف العربية كما شارك في إعداد الموسوعة الإسلامية الميسرة. شارك كذلك في إعداد موسوعة أدباء من حلب. تناول أعماله عددٌ من الصحفيين والكتاب العرب.

صدرله:

طوق الأحلام (2004) رواية (دار الإنماء الحضاري: حلب). طبعة ثانية عام 2008.

ورد الليل (2012) رواية (دار نون: حلب).

القصة القصيرة في أعمال رابطة الكتاب السوريين (2005) دراسة (وزارة الثقافة السورية: دمشق).

فتحة في الجدار (2026) رواية (جدار للثقافة والنشر: الإسكندرية).

NOVEL

في «فتحة في الجدار» يقودنا محمد شويحنة إلى حلب عبر شخصية طلال الوزان، الذي أمضى عقودًا في البرازيل وجمع ثروة كبيرة، ثم حمل معه شوقًا عميقًا إلى البيت الأول، إلى حارة الفرافرة، وعالم الطفولة الذي ظل حاضرًا في ذاكرته. تبدأ الرحلة من مطار دمشق، وتمتد إلى أحياء حلب القديمة، فيجد مدينة أثقلتها الحرب بالخراب والغياب، ويبدأ بحثه عن البيت الذي اختزن تاريخ عائلته وذاكرته.

تمنح الرواية الدار العربية مكانة مركزية في عالمها؛ فدار المنصورية تحمل نظامًا كاملًا للحياة، يجمع العائلة والضيوف والجيران، ضمن فضاء تجتمع فيه الساحة والبركة والليوان والكشك والسطح وتتشكل فيه حياة العائلة. حين يعثر طلال على دار جده، يجد الحجر والذاكرة في مواجهة آثار الحرب، فيشرع في ترميم المكان واستعادة الحياة إليه.

ومن قلب هذا العالم تنشأ «فتحة في الجدار»، الفتحة التي تصل بين بيتين وتفتح طريقًا للحكاية والعلاقات الإنسانية. عبرها تتقاطع حياة طلال مع حياة أبي خالد ووداد وريم، وتتسع الحكاية لتشمل الحب والخوف والانتظار والاعتقال والغياب.

تجمع الرواية بين تاريخ المكان وذاكرة العائلة وتجربة المهاجر العائد، وتضع الإنسان أمام سؤال الجذور والزمن والبيت. وفي مسار طلال تتحول عملية ترميم الدار إلى رحلة داخل الذاكرة، رحلة يستعيد خلالها معنى الوطن، ومعنى العائلة، ومعنى الحياة التي تتشبث بالحجر حتى في أشد الأزمنة قسوة. وتكشف الرواية كذلك عن أثر الهجرة في الوجدان، وعن قدرة الإنسان على حمل مدينته داخله مهما ابتعدت المسافات وتبدلت الأزمنة.

MOHMMAD SHUIHNI

A HOLE IN THE WALL

9 781291 511970

Jidar
Culture & Publishing